
سباق نحو الجنان
كيف تجعل قلبك أسرع القلوب
خالد أحمد أبو شادى
دار البشير للثقافة والعلوم

1420 هـ ـ 2000 م

* الكتــــــاب : سباق نحو الجنان
* الكـــاتـــب : خالد أبو شادى
* الطبـــعـــة : الأولى 2000.
* النـاشـــــر : **دار البشير للثقافة والعلوم ـ طنطا .**
تيلفاكس : 3305538 ـ 3321744 / 040
☎ : 2228277 ـ 2210907 / 040
* التـــــوزيع : **أصالة للتجارة والتسويق ـ الزقازيق**
تليفاكس : 353988 ـ 348654 / 055
* التجـهيـز الفنى : الندى للتجهيزات الفنية المحلة الكبرى
ص ب ـ 265 ☎ : 2228277 / 040
* الإيداع القـانونى : 10163 / 98
* الترقـيم الدولى : I. S. B. N. 977- 265- 219 - 6


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى من ضل الطريق . .

وتاه فى الصحراء . .

حتى أعياه التعب . . وأنهكه العطش . .

وبينما هو كذلك . . إذ لاحت له فى الأفق رايات

أمَّل فيها أسباب النجاة

وإذا بالمنادى ينادي : اركب معنا

ويتودد إليه مطمئناً : لا أسألكم عليه أجراً

ويلح عليه فى شفقة :

إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن

ويبشره مردداً نداء الله :

إن رغبت فينا أتيناك . . وإن ناديتنا سمعناك . .

وإن عزمت على قربنا أدنيناك . .

وإن ذرفت الدمع من أجلنا فيا بشراك . .

لبِّ نداءنا . . والحق بركبنا . . واسلك طريقنا . .

فقد سبقك فى الميدان صالح المؤمنين . .

ولعلهم حطّوا رحالهم فى الجنة منذ سنين . .

فتشبه بهم . . وقلِّد صنيعهم . .

اغرس نخلة العزائم . . وأروها بدموع نادم . .

تنعم بالثمار وبالغنائم . . .

هيا . . . أسرع . . لا تتوان . .

تقدم نحو خط البداية . . وانطلق معنا فى هذه الرحلة

مقدمة

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا.

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، عدد قطر السماء ، وذرات الرمال ، وما طلع عليه ليل أو نهار ، صلاةً وسلاماً دائمين إلى يوم الدين .

فقد وفقنى الله تعالى لأخط كتاب « سباقٌ نحو الجنان » وهو ثمرة مطالعات فى أقوال السلف، وأفعال الصالحين ، ومزجت ذلك بلطيف الشعر وشذرات الحكمة فى إطارٍ بديعٍ يذكى الهمة ، ويوقد الحماسة ، ويحيى سير السلف ، ويشعل روح التنافس بين شباب الأمة ، وهم يرون فى هذه السير مشاعل نور وهداية تتوهج فى ظلمة الليل فيسيرون على شعاعها وينسجون على منوالها ، ويعلو صوت حادى الركب: ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ [المطففين : ٢٦] ، ولا يهدأ بال حتى تأتيهم الملائكة بالبشرى : ﴿ سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ [الزمر : ٧٣].

قال الإمام أبو حنيفة : « الحكايات عن العلماء ومحاسنهم أحب إلىَّ من كثير الفقه لأنها آداب القوم ». وشاهده قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴾ [يوسف : ١١١] .

وهى خلاصة تجربة ابن الجوزى التى يشدد عليها فيقول : « رأيت الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكاد يكفى فى صلاح القلب إلا أن يمزج بالرقائق والنظر فى سير السلف الصالحين ، وقد كان جماعة من السلف يقصدون العبد الصالح للنظر إلى سمته وهديه لا لاقتباس علمه ، وذلك أن ثمرة علمه : هديه وسمته ، فافهم هذا وامزج طلب الفقه والحديث بمطالعة سير السلف والزهاد فى الدنيا

ليكون سبباً لرقة قلبك » [1] .

وما عرضت لهـذه النماذج المشرقة من أجل مصـمصة الشفاة ، والتـحسر على مجـد مضى وزال ، ولكن من أجل الاقتـداء والاهتداء ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ... ﴾ [الممتحنة : ٦] ، ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام : ٩٠] .

وقد فطرنا الله على حب التنـافس ، والسعى والحركة ، قـال عز وجل : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾ [الليل : ٤] ، وقـال ﷺ : « كل الناس يغـدو ، فـبائع نـفسـه فمعتقها أو موبقها » [2] .

لكن « **سباق نحو الجنان** » نوعٌ جديد قديم من السباق .

جديد : فى زمن تنافس الناس فـيه فى جمع الدينار والدرهم ، وتـكالبوا على دنيا زائلة ومـتع فانيـة ، فثقل على هؤلاء أن يفـهموا لغـتنا ، أو يدركوا مـفاهيم سباقنـا ، لأن نافخ الكير تزكمه رائحـة المسك ، ولأن من ولد فى الصين لا يفهم لغة العرب ، فهؤلاء فى واد ونحن فى واد .

قديم : لأنه الأمر الـذى أرق مضاجع الـصالحين ، وشغـل فكرهم ، فصـاموا نهارهم ، وقاموا ليلهـم ، وسالت دموعهم ، حباً فى الله ، وطمعـاً فيما عنده ، وخوفاً من عقابه .

وقبـل أن تتوجـه إلى خط البداية لا أملك إلا أن أصف حـالى وأردد ما سـبق ورده الإمام الواعظ أبو المظفر محمد بن على بن نصر الدورى :

يتوب على يدى قومٌ عـصاة   أخـافتهم من البـارى ذنـوب

وقلبى مظلم من طول ما قد   جـنا فأنا على يد من أتـوب

---

(١) صيد الخاطر ص ١٢٦ ، ١٢٧ - ابن الجوزى - ط دار الفكر .

(٢) رواه مسلم والترمذى وابن مـاجة عن أبى مالك الأشعرى كما فى صحيح الجـامع الصغير رقم (٣٨٥٢) .

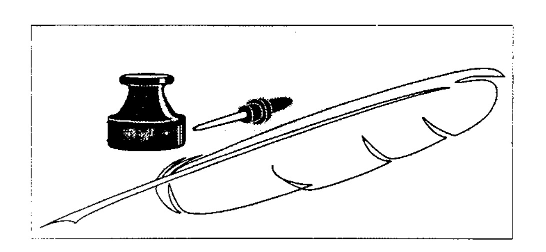
كأنى شمعـــة مـا بين قـــومٍ تضئ لهم ويحرقها اللهيب

كأنى مخيط أكســو أنـــاساً وجسمى من ملابسه سليب [(١)]

من أجل ذلك يا أخى : لا تنسنى بدعوة صالحة لعل الله يجمعــنا معاً فى مستقر رحمتــه ، فى فردوسه الأعلى ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيــهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيــهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [الحديد : ١٢] .

الفقير إلى عفو ربه

خالد أبو شادى



(١) سير أعلام النبلاء (٢٢/٧٦)- شمس الدين الذهبى- ط مؤسسة الرسالة .

الفصل الأول

مفاهيم سباقية

أولاً : معنى السباق .

ثانياً : حكم السباق .

ثالثاً : جوائز السباق .



قال عمر بن عبد العزيز عند دفع الناس من عرفة :

« ليس السابق اليوم من سبق به بعيره، إنما السابق من غفر له »

[لطائف المعارف : ٤٩١]

مفاهيم سباقية

أولاً : معنى السباق

السبق لغةً :

« القدمة فى الجرى وفى كل شىء ، تقول : له فى كل أمر سُبقة ، وسابقة ، وسَبق . وفى الحديث : « أنا سابق العرب [يعنى إلى الإسلام] ، وصهيب سابق الروم ، وبلال سابق الحبشة ، وسلمان سابق الفرس » ، وقوله : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [فاطر : ٣٢] ، وأسبق القوم إلى الأمر وتسابقوا : بادروا، وسبق على قومه : علاهم كرماً » [١] .

ومرادنا بالسباق :

تسابق الخلق فى أعمال الخير والطاعات سواء كانت هذه الأعمال من جنس :

أ - **العبادات** : كالصلاة والصيام وقراءة القرآن .

ب - **المعاملات** : كصلة الرحم وبر الوالدين والإحسان إلى الجار ورعاية الأيتام.

جـ - **الأخلاق** : كالصدق والأمانة والوفاء والعدل والعفو والكرم .

د - **العادات** : كطلب العلم والسعى على الرزق والنكاح إذا صاحب هذه الأعمال نية صالحة .

وعلى هذا (فليس السباق إلى إحراز اللهو واللعب والتفاخر بسباق يليق بمن شبوا عن الطوق ، وتركوا عالم اللهو واللعب للأطفال والصغار ! إنما السباق إلى

---

(١) لسان العرب لابن منظور (٣/ ١٩٢٨، ١٩٢٩) - ط دار المعارف .

ذلك الأفق ، وإلى ذلك الهدف ، وإلى ذلك الملك العريض ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ [الحديد : ٢١]) (١) .

ثانياً : حكم السباق

حث الله كل مسلم ومسلمة على خوض هذا السباق فقال : ﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ [الحديد : ٢١] ، وقال: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال : ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ [البقرة : ١٤٨] ، وقال : ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ [المطففين : ٢٦] ، وقال : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ [الواقعة : ١٠، ١١] .

وقد حفلت أحاديث النبى ﷺ بنماذج عديدة من شحذ الهمم واستحثاثها للتنافس فى الخيرات ، ومن ذلك حثه ﷺ على التنافس فى تلاوة وحفظ القرآن فى قوله : « يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها » (٢) .

وحثه على الصلاة فى الصف الأول فى قوله : « لو يعلم الناس ما فى النداء والصف الأول ، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا » (٣) .

فمن سبق فى هذه الأعمال فى الدنيا ارتقى أعلى درجات الجنة فى الآخرة ، ومن تأخر عنها فى الدنيا حتى وإن دخل الجنة سكن أدنى درجاتها ، واحدة بواحدة وسلعة بسلعة . قال ﷺ : « احضروا الجمعة وادنوا من الإمام ، فإن الرجل لا يزال يتباعد حتى يؤخر فى الجنة وإن دخلها » (٤) .

---

(١) فى ظلال القرآن (٦/ ٣٤٩٢) - سيد قطب - ط دار الشروق .
(٢) رواه أحمد والترمذى وأبو داود وابن حبان عن ابن عمرو كما فى ص ج ص رقم (٧٩٧٨) .
(٣) رواه الشيخان ومالك والنسائى وأحمد عن أبى هريرة كما فى ص ج ص رقم (٥٢١٥) .
(٤) رواه أحمد وأبو داود والحاكم فى المستدرك عن سمره كما فى ص ج ص رقم (١٩٨) .

وقد كان النبى ﷺ يبعث هذه الروح - روح التنافس - بين أصحابه ، فتشتعل شرارة العزم لتحرق مخزون الكسل ويبزغ فجر العمل .

من ذلك أنه سأل أصحابه يوماً : من أصبح منكم اليوم صائماً ؟ قال أبو بكر: أنا ، قال : من اتبع منكم اليوم جنازة ؟ قال أبو بكر: أنا ، قال : فمن عاد منكم اليوم مريضاً ؟ قال أبو بكر : أنا ، فقال الرسول ﷺ : « ما اجتمعن فى امرىءٍ إلا دخل الجنة » [(١)] .

ترى بأى حال عاد صحابة رسول الله ﷺ إلى بيوتهم بعد سماع هذه البشارة ؟ لابد أنهم عادوا بعزم جديد وسعى حثيث ، يبغون به إدراك ما أدرك أبو بكر واغتنام ما اغتنم ، وكانت هذه الأسئلة المباركة شارة البدء وبداية انطلاق التسابق فى حرث الآخرة دون تسويف أو تؤدة ، لأن « التؤدة فى كل شىء خير إلا فى عمل الآخرة » [(٢)] .

جزاء المتخلفين

يقول الإمام ابن القيم : « والمتخلف فى ظل الشجرة نائم ، فوالله ما كان إلا قليل حتى ذوت أغصان تلك الشجرة ، وتساقطت أوراقها ، وانقطع ثمرها ، ويبست فروعها: وانقطع مشربها ، فقلعها قيمها من أصلها فأصبح أهلها فى حر السموم يتقلبون ، وعلى ما فاتهم من العيش فى ظلها يتحسرون ، أحرقها قيمها فصارت هى وما حولها ناراً تَلَظَّى ، وأحاطت النار بمن تحتها ، فلم يستطع أحد منهم الخروج منها » [(٣)] .

ثم سألوا عن المشتركين فى السباق فقيل لهم :

« ارفعوا أبصاركم تروا منازلهم ، فرأوهم وهم من البعد فى قصور مدينة

---

(١) رواه مسلم فى كتاب فضائل الصحابة رقم (١٢) .

(٢) رواه أبو داود والحاكم عن سعد كما فى ص ج ص رقم (٣٠٠٩) .

(٣) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص ٢٢٠ - ابن قيم الجوزية - ط دار إحياء الكتب العربية .

الملك، وغرفها يتمتعون بأنواع اللذات ، فتضاعف عليهم الحسرات ألا يكونوا معهم ، وزاد تضاعفها بأن حيل بينهم وبين ما يشتهون ، وقيل هذا جزاء المتخلفين ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل : ١١٨] (١).

ثالثاً : جوائز السباق

وسباقنا هذا يتم توزيع الجوائز فيه على :

الفائز الأول : وهو من يدخل الجنة بغير حساب . عن أبى أمامة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « وعدنى ربى أن يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفاً لا حساب عليهم ولا عذاب ، مع كل ألف سبعون ألفاً وثلاث حثيات من حثيات ربى » (٢) .

ففى غرة من يدخلون الجنة بغير حساب ٧٠ ألفاً ، هؤلاء هم الذين حجز مقعده معهم عكاشة بن محصن الأسدى لما سمع هذه البشرى قال : يا رسول الله ادعُ الله أن يجعلنى منهم ، فقال : « اللهم اجعله منهم » (٣) .

ولكن بعض من آيسهم الشيطان من رحمة الله وعلمهم فن التثاؤب (عندما يعلمون أن العدد محدود يظنون السباق قد انتهى منذ زمن حيث العصور المباركة من الصحابة والتابعين ، ولكن الحقيقة غير ذلك !! ذلك أن الرسول ﷺ لم يحدد مجموعة بعينها ولم يحدد زماناً بعينه إنما بشر بها أحدهم وعندما قام آخر يطلب ذلك ردَّ عليه : « سبقك بها عكاشة » ، ولو لم يقل ذلك لكان كل من حضر وكل من سمع يريد الحصول على ما حصل عليه عكاشة ، ولانتهى العدد المحدود منذ زمن بعيد) (٤) ، ولكن الرسول ﷺ تركها مفتوحة ليشمِّر أصحاب الهمم

---

(١) السابق ص ٢٤٣ .

(٢) رواه الإمام أحمد كما فى ص ج ص رقم (٦٩٨٨) وتخريج المشكاة رقم (٥٥٥٦) .

(٣) رواه البخارى رقم (٦٥٤١)، فتح البارى (١١/٤١٣) – ط – دار الريان .

(٤) واحات الإيمان (٢/١٣٣ ، ١٣٤) – عبد الحميد البلالى – ط دار الوفاء .

والعزائم عن ساعد الجدِّ ويتسابقوا لعلهم يلحقون بعكاشة دون كلل أو ملل أو يأس أو قنوط ، (ولا تستصعب طريقهم فالمعين قادر ، تعرض لمن أعطاهم ، وسل فمولاك مولاهم ، رُبَّ كنز وقع به فقير ، ورُبَّ فضلٍ فاز به صغير ، علم الخضر ما خفى عن موسى ، وكشف سليمان ما غطى عن داود)[١] .

هكذا كان عبد الله بن ثوب التابعى الجليل المعروف باسم أبى مسلم الخولانى إذ قال : « أيظن أصحاب محمد أن يستأثروا به دوننا ؟ كلا والله لنزاحمنَّهم عليه زحاماً حتى يعلموا أنهم قد خلفوا وراءهم رجالاً »[٢] ، يريد بذلك أن يزاحم بكتفيه وساعديه قافلة عكاشة ، فياترى هل خلف أسلافنا وراءهم رجالاً أم . . . ؟!! .

فإذا أردت أن تكون فى قافلة عكاشة فاعزم عزمة أبى مسلم وادفع رسوم الاشتراك واشترك معنا فى هذا السباق « سباق نحو الجنان » .

ولكن رحمة الله أوسع من أن يدخل الجنة (٧٠.٠٠٠) سبعون ألفا فقط بغير حساب ، فيدخل مع كل ألف من ركب عكاشة ٧٠,٠٠٠ أى يضاف إلى العدد ٤,٩٠٠,٠٠٠ ، ويتسع له رحمة الله لتشمل القاصى والدانى ، فينضم للآلاف السابقة الفائزة ثلاث حثيات من حثيات ربى ، (والمعنى أن الله يخرج من النار خلقاً كثيراً لا يأخذهم عد ، ولا يدخلون تحت حصر ، فيخرجون دفعة واحدة بغير شفاعة أحد ولا ترتيب خروج ، بل كما يلقى القابض الشىء المقبوض عليه من يده فى مرة واحدة فعبّر عن ذلك بالحثوة)[٣] .

الفائز الثانى : أن يحاسب حساباً يسيراً ، أو هو العرض كما جاء فى الحديث الذى رواه البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت : « قال رسول الله ﷺ : من حوسب يوم القيامة عذب ، قالت عائشة : أوليس يقول الله : ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ

---

(١) المدهش ص ٤٢٨ - ابن الجوزى - تحقيق د. مروان قبانى - ط دار الكتب العلمية .

(٢) إحياء علوم الدين (٤/ ٤٣٦) - أبو حامد الغزالى - ط دار الكتب العلمية .

(٣) التذكرة فى أحوال الموتى والآخرة ص (٤٣٧) - القرطبى - ط مكتبة الدعوة .

حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ . قال: ليس ذلك بالحساب إنما ذلك العرض » [١] .

عرض : يخلو بهم فيه الله فيعاتبهم حتى يذوقوا وبال الحياء ويتصببوا عرقاً بين يديه ، ويفيض العرق منهم على أقدامهم من شدة الحياء ، ثم يغفر لهم ويرضى عنهم ، ويبين هذا حديث ابن عمر رضى الله عنهما فى الصحيحين قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله تعالى يدنى المؤمن فيضع عليه كنفه وستره من الناس ويقرره بذنوبه فيقول : تعرف ذنب كذا ؟ فيقول : نعم أى رب . حتى إذا قرره بذنوبه ورأى فى نفسه أنه قد هلك: قال : فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم ، ثم يعطى كتاب حسناته بيمينه ، وأما الكافر والمنافق فينادى على رؤوس الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم » [٢] .

وعن عائشة رضى الله عنها : « سمعت النبى ﷺ يقول فى بعض صلاته : اللهم حاسبنا حساباً يسيراً ، فلما انصرف قلت : يا نبى الله ، وما الحساب اليسير؟ قال : أن ينظر الله فى كتابه فيتجاوز عنه » [٣] .

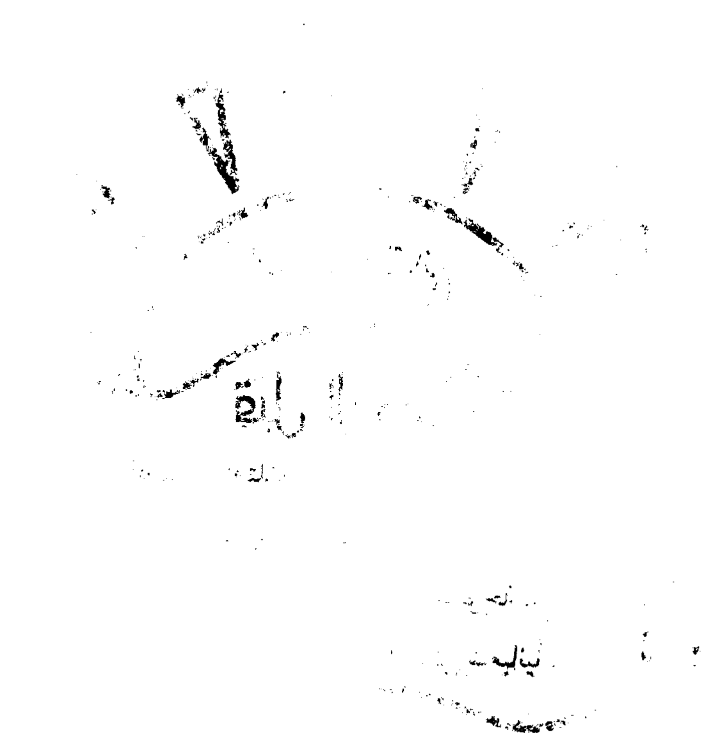
أما من جاء بعد ذلك فهو المناقش بالحساب ، وقد قال رسول الله ﷺ : « من نوقش الحساب هلك » [٤] . ، فهو فى النار يعض أصابع الندم لتخلفه عن سباقنا وقعوده مع الكسالى والخاملين .



(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى عن عائشة كما فى ص ج ص رقم (٦٠٩٦) .
(٢) رواه الشيخان وأحمد والنسائى وابن ماجة عن ابن عمر كما فى ص ج ص رقم (١٨٩٠) .
(٣) رواه أحمد فى باقى مسند الأنصار رقم (٢٣٠٨٢) ، وأخرجه البخارى فى العلم رقم (١٠٠) .
(٤) رواه الطبرانى عن ابن الزبير وأحمد والحاكم عن عائشة فى ص ج ص رقم (٦٤٥٥) .



قال الحسن البصرى : « يا ابن آدم : نهارك ضيفك فأحسن إليه ، فإنك إن أحسنت إليه ارتحل بحمدك ، وإن أسأت إليه ارتحل بذمك ، وكذلك ليلك » . [البيان والتبيين ٣/ ٨٣]



قبل الانطلاق

أولاً : اضبط ساعتك

قبل أن نبدأ السباق على كل متسابق أن يضبط ساعته ، وأن يحرص على وقته، فالدقيقة في هذا السباق لها ثمن بل الثانية ، فكل لحظة نعيشها هي أمل في الفوز. وربما خسرت السباق بفارق ثانية واحدة فلا تضيعها فتندم يوم لا ينفع الندم . . ﴿ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ﴾ [إبراهيم : ٤٤] .

لحظة من فضلك

لحظة يا صاحبي إن تغفل   ألف ميل زاد بعد المنزل

رام نقش الشوك حينا رجل   فاختفى عن ناظريه المحمل

وقصة هذا الشعر :

« أن إنساناً كان تائهاً في مغارة يمشي على قدميه ، فشهد على بعد منه محملاً أمّل فيه أسباب النجاة فأسرع متعجلاً يدركه حافياً ، وأصاب الشوك قدميه فصرف بصره عن المحمل لحظة لينزع الشوك من قدمه فغاب عنه المحمل ، ومات ولبسته الحسرات » (١) .

فانظر يا أخي إلى الوقت الذي صرفه صاحب القصة للنظر إلى الشوك كيف أثر في حياته حتى اختفى عنه المحمل ، فكيف بمن ضيّع وقته في النظر إلى أشواك الدنيا ؟ فكم يا ترى سيضيع من حياته !! حتى تختفي يوم القيامة عن ناظريه الجنة.

---

(١) ديوان الرموز والأسرار لإقبال ، نقلاً عن رسالة المسترشدين ص ١١٥ - تحقيق العلامة أبي غدة - ط دار السلام .

يا مضيع النخيل

يوضح ذلك ابن الجوزى فى وصية من وصاياه الثمينة التى حوتها رسالته القيمة (رسالة إلى ولدى) والتى أوصى بها ابنه أبا القاسم بدر الدين قائلاً له :

« واعلم أن الأيام تبسط ساعات ، والساعات تبسط أنفاساً ، وكل نفس خزانة، فاحذر أن يذهب نَفَسٌ بغير شىء فترى يوم القيامة خزانة فارغة فتندم ، فإن فى الصحيح عن رسول الله ﷺ : « من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له نخلة فى الجنة » (١) ، فانظر إلى مضيع الساعات كم يفوته من النخيل » (٢) .

الوقت هو الحياة

بلغ حرص السلف على أوقاتهم مبلغاً عجيباً ، وكانوا أعرف الناس بقيمتها ، وكانوا يقولون : من علامات المقت إضاعة الوقت ، ويقولون : الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك ، وكانوا يحاولون دائماً الترقى من حال إلى حالٍ أحسن منها بحيث يكون يوم أحدهم أفضل من أمسه وغده أفضل من يومه ، ويقولون فى هذا : « من كان يومه مثل أمسه فهو مغبون ، ومن كان يومه شراً من أمسه فهو ملعون ، ومن لم يتعاهد النقصان من نفسه فهو فى نقصان ، ومن كان فى نقصان فالموت خيرٌ له » (٣) .

يقول **الحسن البصرى** : « ابن آدم إنما أنت أيام فإذا ذهب يومٌ ذهب بعضك ، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل ، وأنت تعلم فاعمل » (٤) .

و كان **بشر بن الحارث الحافي** كثيرا ما يقول : « أمس قد مات ، واليوم فى النزع، وغد لم يولد فبادر بالأعمال الصالحة» (٥) . وتتغير الألفاظ لكن معانيها

---

(١) رواه الترمذى وابن حبان والحاكم عن جابر كما فى ص ج ص رقم (٦٣٠٥) .
(٢) رسالة إلى ولدى ص (٢٧, ٢٨) - ابن الجوزى - ط دار السلام .
(٣) حلية الأولياء (٨/ ٣٥) - أبو نعيم الإصفهانى - ط دار الكتاب العلمى .
(٤) السابق (٢/ ١٤٨) .
(٥) بشر بن الحارث ص (٥٦) - د. عبد الحليم محمود - ط دار المعارف .

تبقى كما هى فيقول : « الليل والنهار حثيثان يعملان فيك، فاعمل فيهما » [١].

نماذج مدهشة

كان **أبو بكر بن عياش** يقول : « لو سقط من أحدهم درهم لظل يومه يقول : إنا لله ذهب درهمى ، وهو يذهب عمره ولا يقول: ذهب عـمرى ، وقد كان لله أقوام يبادرون الأوقات ، ويحفظون الساعات ، ويلازمونها بالطاعات » [٢].

من أجل هذا أنجزوا الأعمال العظيمة فى أعمار قصيرة فهذا الإمام **أبو زكريا بن شرف الدين النووى** يموت فى الخامسة والأربعين من عمره (٦٣١-٦٧٦هـ) ويترك من المؤلفات ما قسموه بعد موته على أيام حياته فكان نصيب كل يوم أربع كراريس فكيف تم له ذلك؟ اسمع منه يجبك : « وبقيتُ سنتين لم أضع جنبى على الأرض » . ينام على الكتاب ونحن ننام على نهايه الإرسال !!.

قال الخطيب البغدادى : سمعت على بن عبيد الله بن عبد الغفار اللغوى يحكى أن **محمداً بن جرير الطبرى** المتوفى منذ ٣١٠ هـ عن ثلاث وثمانين سنة مكث أربعين سنة يكتب كل يوم أربعين ورقة . أى أنه رحمه الله كتب ما يقرب من ٥٨٤٠٠٠ أربعة وثمانين وخمسمائة ألف ورقة . إن المرء ليقف مشدوهاً أمام هذا الرقم الذى لا يعرف لعالم فى تاريخ البشرية ، بيد أنك إذا علمت ما كان عليه من حرص على لحظات عمره حتى فى لحظات احتضاره ما تعجبت .

وبلغ الإمام **أبو الوفاء على بن عقيل الحنبلى البغدادى** المتوفى سنة ٥١٣ هـ فى محافظته على الزمن مبلغاً أثمر أكبر كتاب عُرف فى الدنيا هو كتاب الفنون والذى يقع فى ٨٠٠ مجلد .

وقد يسبق التلميذ أستاذه ، فهذا الإمام **أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد بن الجوزى** تلميذ ابن عقيل المتوفى سنة (٥٩٧ هـ) يقول : « كتبت

---

(١) السباق ص (٥٧) .

(٢) الياقوتة لابن الجوزى ص (٥٨) - ط دار الفضيلة .

بأصبعيّ هاتين ألفى مجلد ، وتاب على يدى مائة ألف ، وأسلم على يدىّ عشرون ألف يهودى ونصرانى » ، وقال أيضاً : « لو قلت أنى قد طالعت عشرين ألف مجلد ، كان أكثر وأنا بعد فى الطلب » ، وقال عنه صاحب كتاب الكنى والألقاب : « إن براية أقلام ابن الجوزى التى كتب بها الحديث جمعت فحصل منها شيء كثير فأوصى أن يسخن بها الماء الذى يُغسّل به بعد موته ففعل ذلك فكفت وفضل منها » .

ومعنا فى سباقنا متسابق طلّق الراحة ثلاثاً ولا يرضى بالمحلل كيف وقد سمع حديث رسول الله ﷺ : « لعن الله المحلل والمحلل له » . ذلك هو شيخ الطب فى زمانه **ابن النفيس** -رحمه الله- والذى يقول عنه التاج السبكى : « وصف كتاباً سماه الشامل، لو تم لكان ثلاثمائة مجلد ، تم منه ثمانون مجلداً وكان فيما يذكر على تصانيفه من ذهنه » . فكيف تم له ذلك ؟

كان رحمه الله إذا أراد التصنيف توضع له الأقلام مبرية ويدير وجهه إلى الحائط، ويأخذ فى التصنيف إملاء من خاطره ، ويكتب مثل السيل إذا انحدر ، فإذا كلّ القلم وحفى رمى به وتناول غيره لئلا يضيع عليه الزمن فى برى الأقلام.

ويأتينا خبر الإمام **سليم بن أيوب الدارى** أحد كبار أئمة المذهب الشافعى المتوفى سنة ٤٤٧ هـ يحاسب على الأنفاس أن تضيع دون فائدة ، فقد قال أبو الفرج غيث بن على التنوخى الصورى : وحدثت عنه أنه كان يحاسب نفسه على الأنفاس لا يدع وقتاً يمضى عليه فى غير فائدة ، إما ينسخ وأما يدرس ، أو يقرأ، فينسخ شيئا كثيرا، ولقد حدثنى عنه شيخنا أبو الفرج الإسفرايينى - وهو أحد تلامذته- أنه نزل يوما إلى داره ورجع ، فقال : قد قرأت جزءا فى طريقى .

قال: وحدثنى المؤمل بن الحسن : « أنه رأى سليما خفى عليه القلم (لم يعد يصلح للكتابة) فإلى أن قطّه (براه) جعل يحرك شفتيه ، فعلم أنه يقرأ بإزاء إصلاحه القلم لئلا يمضى عليه زمان وهو فارغ [1] .

(١) هذه النماذج منتقاة من كتاب قيمة الزمن عند المسلمين - عبد الفتاح أبو غدة - ط دار القلم .

ثانيا : السير سير القلب

ليس الاعتبار فى سباقنا بكم أعمال البر فحسب ، وإنما الاعتبار بلين القلوب وتقواها وتطهيرها من الآثام ، سير الدنيا يقطع بسير الأبدان ، وسيرالآخرة يُقطع بسير القلوب .

جاء رجل إلى الزاهد **أبى على الدقاق** يشتاق إلى مواعظه فقال : قد قطعت إليك مسافة . فقال: « ليس هذا الأمر بقطع المسافات فارق نفسك بخطوة ، يوصلك إلى مقصودك» [1].

انظر معى إلى قاتل المائة نفس (فهذا رجل لما مشى بقلبه إلى الله ، حسبت له الخطوة الواحدة بل الشبر الواحد ، ولو أنه طوّف بقدميه ، ولم يكن له ذلك القلب ، لكان َالعظام المحمولة فى نعشه، قبرها فى المشرق هو قبرها فى المغرب، وليس لها من الأرض، ولا للأرض منها إلا معنى واحد لا يتغير؛ هو أنه بجملته ميت، وأنها بجملتها حفرة) [2].

سير القلوب أبلغ من سير الأبدان ، كم من واصل ببدنه إلى البيت ، وقلبه منقطع عن رب البيت، وكم من قاعد على فراشه فى بيته وقلبه متصل بالملأ الأعلى .

جسمى معى غير أن الروح عندكم   فالجسم فى غربة والروح فى وطن

(فإن الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها ، وإنما تتفاضل بتفاضل ما فى القلوب . فتكون صورة العمل واحدة وبينهما فى التفاضل كما بين السماء والأرض) [3].

---

(١) المدهش ص (١٧٩) .

(٢) وحى القلم للرافعى (١/٢٣٨) - ط دار الكتاب العلمى .

(٣) تهذيب مدارك السالكين ص (١٨٨) - عبد المنعم صالح - ط دار التوزيع والنشر الإسلامية .

قال ﷺ: « إن أكثر شهداء أمتى أصحاب الفُرُش، ورب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته » (١).

سبحان الله! الشهادة : بلغها متسابق بقلبه مع موته على فراشه ، وما نالها من فُصِلَ رأسه عن جسده فى ميدان القتال ، فمن الذى رفع هذا ووضع ذاك ؟ إنه سير القلب.

عبد الله بن ثابت كان من « **أصحاب الفُرُش** » لما مات قالت ابنته : والله إن كنت لأرجو أن تكون شهيدا ، فإنك كنت قد أتممت جهازك (أتممت ما تحتاج إليه فى سفرك للغزو) ، فقال رسول الله ﷺ: « أن الله أوقع أجره على قدر نيته»(٢).

أما **قزمان الظفرى** فكان « **قتيل بين الصفين** » ، خرج قزمان مع النبى ﷺ فى غزوة أحد فأبلى بلاء حسنا ، وكان لا يدع للكفار شاذّةً ولا فاذّةً إلا أتبعها يضربها بسيفه ، حتى قال بعض الصحابة : ما أجزأ منا اليوم أحد كما أجزأ فلان ، فقال النبى ﷺ :« إنه من أهل النار» (٣) ، فتتبعه صحابى آخر فرآه قد أصيب فهنأه بالشهادة وبشره، فقال : بم تبشرون ؟ والله ما قاتلت إلا عن أحساب قومى، ولولا ذلك ما قاتلت ، ثم أخرج سهما من كنانته فقتل به نفسه ، فمات كافرا.

حديث للحفظ

لأهمية سير القلب وضع لنا النبى ﷺ هذا العنوان وقال : « وأحدثكم حديثا فاحفظوه : إنما الدنيا لأربع : عبد رزقه الله مالا وعلما فهو يتقى فيه ربه ، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقا ، فهذا بأفضل المنازل ، وعبد رزقه الله علما ولم

---

(١) رواه أحمد عن ابن مسعود كما فى الجامع الصغير رقم (٢٢١٨) ، وهو حديث مرسل فيه ابن لهيعة وبقية رجاله ثقات .

(٢) رواه أبو داود والنسائى وأحمد وابن ماجه عن جابر بن عتيك كما فى ص ج ص رقم(١٧٨٧).

(٣) القصة من غير تسمية الرجل عند البخارى فى الجهاد رقم (٢٨٩٨) ، وتسميته قزمان فى سيرة ابن هشام .

يرزقه مالا ، فهو صادق النية يقول : لو أن لى مالاً لعملت بعمل فلان فهو بنيته، فأجرهما سواء ، . . . » (١) .

سير القلب هو سير أصحاب رسول الله ﷺ ذوى الأعذار فى غزوة تبوك الذين قال عنهم النبى ﷺ: « إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ، ولا أنفقتم من نفقة ، ولا قطعتم واديا ، إلا كانوا معكم فيه وهم بالمدينة ، حبسهم العذر» (٢) .

يا سائرين إلي البيت العتيق لقد سرتم جسوما وسرنا نحن أرواحا

إنـا أقمنا على عـذر وقد رحـلوا ومن أقـام عـلى عذر فقد راحا

فلا تكونن (فى غفلة عن هذا الإكسير الكيماوى الذى إذا وضع منه مثقال ذرة على قناطير من نحاس الأعمال قلبها ذهبا) (٣) .

ثالثاً : أبواب الخير مفتوحة

سبحان من تفضل على هذه الأمة ومنحها على يد نبيها نبى الرحمة أبواب الفضائل الجمة ، فما من عمل عظيم يقوم به قوم ويعجز عنه آخرون إلا وجعل الله لهم عملاً يساويه أو يفضل عليه ، فلا يبقى لمتخلف عذر .

إن كنت فقيراً لا تجد ما تنفقه فى سبيل الله ، ووجدت الأغنياء فقد سبقك إلى ذلك صحابة رسول الله قالوا : يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور ، يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون بفضول أموالهم ، فقال لهم النبى ﷺ : « أوليس قد جعل الله لكم ما تتصدقون ؟ إن بكل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وأمر بمعروف صدقة ، ونهى عن منكر صدقة ، وفى بضع أحدكم صدقة » (٤) .

---

(١) رواه أحمد والترمذى عن أبى كبشة الأنمارى كما فى صحيح تخريج المشكاة رقم (٥٢٨٧) .
(٢) رواه البخارى فى كتاب الجهاد عن أنس رقم (٢٦٢٧) .
(٣) تهذيب مدارج السالكين ص ١٨٨ .
(٤) رواه مسلم عن أبى ذر رقم (١٦٧٤) .

ووعى أبو الدرداء الدرس فأجـاب لما سأله أحد أصـحابه : أعتق مائة نسـمة ؟ أجاب : « أن مائة نسـمة من مال رجل كثير وأفـضل من ذلك إيمان ملزوم بالعمل بالليل والنهـار وأن لا يزال لسان أحـدكم رطباً بذكـر الله عز وجل » [١] وعنه أنه قال: « لأن أقـول لا إله إلا الله والله أكبر مائة مـرة أحب إليَّ من أن أتصدق بمائة دينار » [٢] .

ولما كان الجهاد ذروة سنام الإسلام ولا قدرة للضعيف عليه فإن الله فتح لك باباً يعادله : كان الصحابة إذا تخلفوا عن غـزو ونحوه بعذر إما أن يخرج مكانه رجلاً من ماله ، وإما أن يعين غازياً ، وإما أن يخلـفه فى أهله لأن « من جهز غازياً فى سبيل الله فقد غزا ، ومن خلف غازياً فى سبيل الله فى أهله بخير فقد غزا»[٣].

فإن لم تكن ذا مال تعـين به غازياً فتح الله لك باباً آخر يساويه بـل يفضل عليه فكان العمل فى عـشر ذى الحجة لا يفضل عـليه عمل إلا من خرج بنفـسه وماله ولم يرجع منهمـا بشئ . فعن ابن عبـاس رضى الله عنهما قال : قـال رسول الله ﷺ : «ما من أيام العـمل الصالح فـيها أحب إلى الله عـز وجل من هذه الأيام ، يعنى الأيام العشـر : قالوا :يا رسول الله ولا الجـهاد فى سبـيل الله ، قال : ولا الجهاد فى سبيل الله إلا رجل خرج بنفسه وماله ثم لم يرجع بشئ من ذلك» [٤].

ولما كـان الحج أفضل الأعـمال وكـان كثـير من الناس يعـجز عنه لقلـة مال أو ضعف صـحة فإن الله عوضـهم عن ذلك ببشرى ساقـها نبى الرحمة للعـاجز عن التطوع بالحج فقـال ﷺ : « من صلى الصبح فى جماعة، ثـم جلس فى مصلاه يذكر الله حتى تطلع الشمس ، ثم صلى ركعتين ، كان مثل أجر حجة وعمرة تامة تامة تامة» [٥].

---

(١) لطائف المعارف لابن رجب الحنبلى ص (٤٩٧) – ط مطابع الأهرام .
(٢) السابق ص (٤٩٧) .
(٣) رواه الشيخان وأحمد عن زيد بن خالد كما فى ص ج ص رقم (٦٠٦٩) .
(٤) رواه الجماعة إلا مسلم والنسائي واللفظ لأحمد كما فى ص ج ص رقم (٥٤٢٤) .
(٥) رواه الترمذى عن أنس كما فى ص ج ص رقم (٦٢٢٢) .

فإن أضعت هذه الفرصة واعتدت النوم بعد الفجر فلك أجر حجة تامة إن سلكت طريق « من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيراً، أو يعلمه كان له كأجر حاج تاما حجته» [١].

شهود الجمعة يعدل حجة التطوع ، قال **سعيد بن المسيب** : «هذا أحب إلىَّ من حجة نافلة» [٢]، وقد جعل النبى ﷺ المبكر إلى الجمعة كالمهدى هديا إلى البيت الحرام ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة (أى كغسل الجنابة) ، ثم راح فى الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة (ناقة) »[٣] .

وقال **الحسن** : مشيك فى حاجة أخيك المسلم خير لك من حجة ، وقال أبو هريرة رضى الله عنه : بكورك إلى المسجد أحب إلينا من غزوتنا مع رسول الله ﷺ .

أخى المتسابق : رحمة الله واسعة وأبواب الخير كثيرة ، إذا وجدت أحد الأبواب مغلقاً فقد فتح لك أبوابا ، وإذا ضاقت بك سبيل وسعتك سبل ، فافتح هذه الأبواب وواصل السير وأنت تردد : «باسم الله ولجنا » حتى تصل ، ففى نهاية هذه الأبواب ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة : ٧٢] .

---

(١) رواه الطبرانى عن أبى أمامة كما فى صحيح الترغيب والترهيب رقم (٨٢) .
(٢) لطائف المعارف ص (٥٠٢) .
(٣) رواه الجماعة إلا ابن ماجه عن أبى هريرة كما فى ص ج ص رقم (٥٩٣٩) .

رابعاً : لا تكن شعبانياً

سئل الشبلى : أيهما أفضل رجب أم شعبان ؟ فقال : « كن ربانياً ولا تكن شعبانياً » [١] ، يقرع بها أسماع من عَبَدَ الله على حرف فعرفه فى شعبان ونساه طوال العام ، وسالت دموعه فى رمضان وقحطت فى غير رمضان .

لما قيل لبشر بن الحارث الحافى : إن قوماً يتعبدون ويجتهدون فقال : بئس القوم لا يعرفون الله حقاً إلا فى شهر رمضان . ويضع النقاط على الحروف فيقول : إن الصالح الذى يعبد ويجتهد السنة كلها .

أين حال هؤلاء الحمقى من قومٍ كان الدهر كله رمضان ؟ ليلهم قيام ، ونهارهم صيام ، باع قوم من السلف جارية ، فلما قرب شهر رمضان رأتهم يتأهبون له بما لذَّ وطاب من الطعام والشرابِ فسألتهم فقالوا : نتهيأ لصيام رمضان ، فقالت : وأنتم لا تصومون إلا رمضان ؟!! . لقد كنت عند قومٍ كان كل زمانهم رمضان . . . ردُّونى عليهم .

باع أبو عبد الله الحسن بن صالح جارية له ، فلما انتصف الليل قامت فنادت : يا أهل الديار . . الصلاة . . الصلاة ، قالوا : أطلع الفجر ؟ قالت : وأنتم لا تصلون إلا المكتوبة ؟!! . ثم جاءت الحسن وقالت : لقد بعتنى لقوم سوء لا يصلون إلا المكتوبة ردنى . . ردنى . . ردنى .

كان الرسول ﷺ عمله ديمة ، ولما سئلت السيدة عائشة رضى الله عنها : « هل كان النبى ﷺ يخص يوماً من القيام ؟ فقالت : لا ، كان عمله ديمة » [٢] .

فعلى خطى رسول الله ﷺ سر ، وكن على عمل دائم حتى ينتهى سباقك ،

---

(١) لطائف المعارف ص (٤٥٠) .

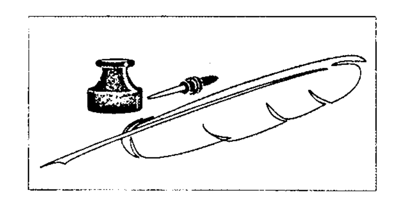
(٢) رواه البخارى رقم (٥٩٨٥) ، ومسلم رقم (١٣٠٤) ، والديمة : المطر الدائم فى سكون ، شبهت عمله فى نومه مع الاقتصاد بديمة المطر .

ويأتيك أجلك ، قال الحسن : إن الله لم يجعل لعمل المؤمن أجلاً دون الموت ، ثم قرأ : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر : ٩٩] .

كل وقت تقضيه فى غير طاعة مولاك فقد خسرته ، وكل ساعة تغفل عن ذكر الله تكون عليك حسرة يوم القيامة ، فوا أسفاه على زمان انقضى فى غير طاعته ، وواحسرتاه على قلب عاش فى غير خدمته .

وإليك القول على لسان ابن رجب الحنبلى :

هذه الشهور والأعوام والليالى والأيام كلها مقادير الآجال ، ومواقيت الأعمال ، ثم تنقضى سريعاً ، وتمضى بعيداً ، والذى أوجدها وابتدعها وخصها بالفضائل باق لا يزول ، ودائمٌ لا يحول ، هو فى جميع الأوقات إلهٌ واحد ، ولأعمال عباده رقيب مشاهد »[1].



(١) لطائف المعارف ص (٤٥٢) .

الفصل الثالث

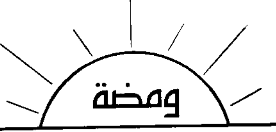
رسوم الاشتراك

أولاً: قلب لا يعرف القضبان .

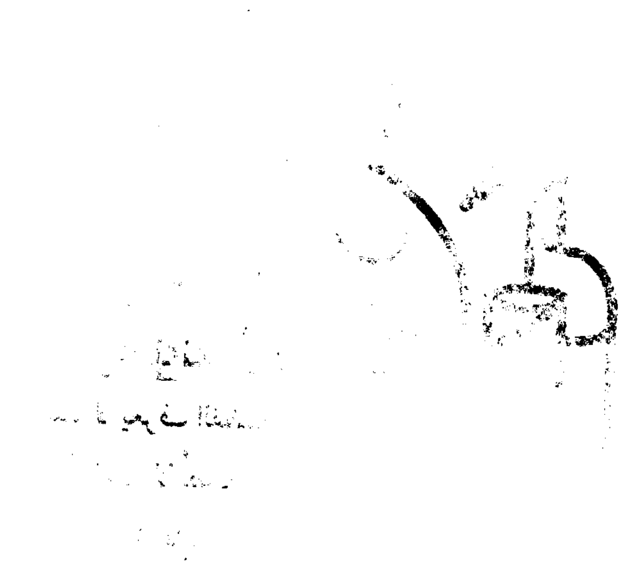
ثانياً: قلب لا يُصاد بالطعم .

ثالثاً: قلب دائم الثأر .

رابعاً: قلب لا يعرف التثاؤب .



قال ابن القيم: « اشتر نفسك اليوم، فإن السوق قائمة، والثمن موجود، والبضائع رخيصة، سيأتي على تلك السوق والبضائع يومٌ لا تصل فيه إلى قليل ولا كثير » .[الفوائد: ٦٤]



رسوم الاشتراك

أولاً : قلبٌ لا يعرف القضبان

هذه أول شروطنا وأهمها، فلابد للقلب الذى يشترك فى سباقنا أن يكون حراً طليقاً، ولا يعرف أسر المادة أو قضبان الشهوة، أما القلب المحبوس خلف الأسوار فأنى له أن يقوم وهو مكبل، وأنى له أن يتسابق وهو مقيد، فالسباق والأسر لا يجتمعان .

فمن كان قلبه أسيراً لشىء من الدنيا قيده عن الحركة ومنعه من الانطلاق لإحراز الغاية وبلوغ خط النهاية، سواء كان الآسر تجارة أو امرأة أو لهواً أو منصباً، والعاقل ينظر إلى حقيقة الأشياء وجوهرها لا إلى مظهرها .

واقرأ بقلبٍ نقى قول الله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ [آل عمران: ١٤] .

زُيِّنَ: نعم فالدنيا زينة . . مظهر . . متاع زائل والاقتراب يفضح الصورة ويبين أن ما ظنته النفس حقيقة ليس إلا خيالاً ﴿ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ هذه هى الحقيقة الراسخة، والله عنده النعيم الدائم واللذة الباقية، فالخاسر من آثر الفانى على الباقى، والرخيص على النفيس .

هذه الشهوات هى الحبة داخل الفخ، يراها الطائر ولا يرى الفخ لغلبة شهوة الحبة على قلبه، وتعلق باله بها، وجهله بما جعلت فيه فإن لم ينتبه هلك، وإن تيقظ نجا، فكن كيساً فَطِناً كما أرادك رسول الله ﷺ ولا تقع فى الفخ فَتُشْوى فى جهنم، وتذكر قَولَةَ الحبيب ﷺ: «حُفَّت الجنة بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات»(١) .

---

(١) رواه مسلم والترمذى عن أنس كما فى ص ج ص رقم (٣١٤٢) .

عثمان بن عفان رضى الله عنه خلع هذه القضبان، ورمى بها بعيداً ولم يكتف بذلك بل هو الذى طوّق شهوته بأغلال بَذْلِه وجُودِه حتى خرّت شهوته راكعةً تحت قدميه ترسف فى القيود، قال أبو هريرة رضى الله عنه: « اشترى عثمان الجنة من النبى ﷺ مرتين حين حفر بئر رومة، وحين جهز جيش العسرة » (١) ، ولهذا قلّده الرسول ﷺ وسام (عثمان فى الجنة) (٢) .

أما من خالف نهج الخليفة الثالث فى تحطيم القضبان فسيشكو العِلل والأمراض ومنها وليس آخرها فقدان حلاوة الطاعة .

معنا فى حلبة السباق طبيب بارع هو بشر بن الحارث شَخَّصَ هذا المرض فقال يصف الداء والدواء معاً: « لا يجد العبد حلاوة العبادة حتى يجعل بينه وبين الشهوات حائطاً من حديد » (٣) .

والآن إليك البحث الميدانى الذى أجراه العلامة ابن القيم وخرج منه إلى أن:
«الصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ما توجبه الشهوة، فإنها إما أن توجب ألماً وعقوبة، وإما أن تقطع لذةً أكمل منها، وإما أن تضيع وقتاً إضاعته حسرة وندامة، وإما أن تثلم عرضاً توفيره أنفع للعبد من ثلمه، وإما أن تذهب مالاً بقاؤه خيرٌ له من ذهابه، وإما أن تضع قدراً وجاهاً قيامه خيرٌ من وضعه، وإما أن تسلب نعمةة بقاؤها ألذ وأطيب من قضاء الشهوة، وإما أن تطرق لوضيع إليك طريقاً لم يكن يجدها قبل ذلك، وإما أن تجلب هماً وغماً وحزناً وخوفاً لا يقارب لذة الشهوة، وإما أن تنسى علماً ذِكْرُه ألذ من نيل الشهوة، وإما أن تشمت عدواً وتحزن ولياً، وإما أن تقطع الطريق على نعمة مقبلة، وإما أن تحدث عيباً يبقى صفة لا تزول فإن الأعمال تورث الصفات والأخلاق » (٤) .

---

(١) صفحات مشرقة من حياة السابقين ص ٣٤٣ - جمع وإعداد نذير محمد - ط دار البشائر .
(٢) رواه ابن عساكر عن جابر كما فى ص ج ص رقم (٣٨٧٤) .
(٣) حلية الأولياء (٨/ ٣٤٥) .
(٤) كتاب الفوائد ص (١٨٢ ، ١٨٣) - ابن قيم الجوزية - ط دار النفائس .

اقرأ كلمات ابن القيم واسترجع شريط ذكـرياتك وستجد أن ما من كلمة خطَّها إلا وكـانت مصـداق حـادثة وقعت مـعك عندمـا آثرت شهـوتك يومـاً . . أليس كذلك؟! .

فالصبر الصبر .. والبذل البذل .. والتعب التعب ...

من صام عن شـهوته فى الدنيـا، أدركها غـداً فى الجنة، ومن صام عـمّا سوى الله، فعيده يوم اللقاء ﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾[العنكبوت: ٥].

والجزاء من جنس العمل .

من صفات الجنة أن . . .

ظلها ممدود . . . لمن لا يتعدى الحدود .

عيشها مقيم . . . لمن على أوامر الله يستقيم .

بساتينها زاهرة . . . لمن له عين لله ساهرة .

ماؤها مسكوب . . . لمن بذكر الله أحيا القلوب .

قطوفها دانية . . . لمن روحه لحب الصالحين دانية .

فيها قاصرات الطرف فى الخيام . . . لمن قصر طرفه عن الآثام .

فيها عينان تجريان . . . لمن له اليوم عينان من خشية الله تجريان .

لا يسمع فيها لاغية . . . من صان سمعه فى دنياه عن السماع لغانية .

فطوبى . .

لمن جوع نفسه ليوم الشبع الأكبر .

وطوبى . .

لمن أظمأ نفسه ليوم الرى الكامل .

وطوبى . .

لمن صبر عن شهواتٍ زائلة ليسعد بنعيم جناتٍ خالدة .

والآن ضع نصب عـينيك هذه الدرر التى قالـها **ابن الجوزى** وكتبناها لك بخط مميز حتى تنقش فى ذهنك نقشاً:

النعيم لا يدرك بالنعيم، ومن آثر الراحة فاتته الراحة، بحسب ركوب الأهوال واحتمال المشاق تكون الفرحة واللذة، فلا فرحة لمن لا هم له، ولا لذة لمن لا صبر له، ولا نعيم لمن لا شقاء له، ولا راحة لمن لا تعب له، صبر ساعة خيرٌ من عذاب الأبد، وإذا تعب العبد قليلاً استراح طويلاً .

ثانياً : قلبٌ لا يُصاد بالطعم

(أ) قلبٌ شعاره اليقظة :

ولكن ما هى اليقظة ؟

اليقظة: (هى انزعاج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغافلين ولله ما أنفع هذه الروعة ! وما أعظم قدرها وخطرها ! وما أشد إعانتها على السلوك، فمن أحس بها فقد أحس والله بالفلاح، وإلا فهو فى سكرات الغفلة) [1] .

ما إن نزلت اليقظة فى قلب المتسابق حتى لقيت الغفلة جاثمة فيه، وقبل طردها قالت لها:

سلامٌ على اللذات واللهو والصبا   سلامُ وداعٍ لا سلامُ قدوم

وبدأت فى إحداث هذه الآثار:

آثار اليقظة

*** تنبه إلى كثرة النعم**

هذه اليقظة تؤدى إلى ملاحظة نعم الله الظاهرة والباطنة، فيشاهد عظمتها وكثرتها، وييأس من عدها والوقوف على حدها، وتفضل الله عليه بها دون أن يستحقها ولا أن يدفع ثمنها، وأنى له أن يدفع، ولو سلبت منه نعمة واحدة كنعمة

(١) تهذيب مدارج السالكين ص (١٠١) .

البصر أو السمع ثم طُلِبَ إليه أن يدفع كل ما يملك ثمناً لردها ما تردد لحظة واحدة.

كما تؤدى هذه اليقظة إلى مشاهدة التقصير فى شكر هذه النعم فيتحقق بذلك «أبوء لك بنعمتك علىَّ وأبوء بذنبى »، ويعلم بأن هذا الاستغفار حقيق بأن يكون سيد الاستغفار، ويعلم حينئذ أن الله لو رحمهم لكانت رحمته فضلاً منه لا جزاء عملهم، ورضى الله عن يحيى بن معاذ إذ يقول فى هذا: « إن أقام عليهم عدله لم تبق لهم حسنة، وإن نالهم فضله لم تبق لهم سيئة » (١)، فباليقظة يعلم العبد بأنه سائر إلى الله بين مطالعة نعمه الكثيرة ومشاهدة تقصيره الشديد .

فتيقظ وأدمن النظر فى مرايا النعم تر قبح الجحود بوضوح، فتسعى فى ضوء هذه الرؤية فى تجميل النفس وتزيينها بالشكر القولى والعملى .

* تعلم فن إحصاء السيئات:

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [الكهف: ٥٧] ، فكما يحصى التاجر الدينار والدرهم، وكما يحسب الطالب درجات النجاح والرسوب، فإن المتسابق معنا يحصى سيئاته ويحذر عاقبتها. خُذ **سفيان الثورى** مثلاً حيث يخبرنا بأسى ومرارة: « حرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب أذنبته » (٢) . فالشهور لا تنسيه ذنبه، وإنما هو نصب عينيه، وهذا التابعى **محمد بن سيرين** أصابه دين فحاسب نفسه محاسبة الأبرار لا محاسبة التجار فقال: « والله ما وقع هذا إلا بذنب أذنبته منذ أربعين سنة قلت لرجل: يا مفلس، ثم قال: فحدثت به أبا سليمان الدارانى فقال: قلّت ذنوبهم فعرفوا من أين يؤتون، وكثرت ذنوبى وذنوبك فليس ندرى من أين نؤتى » (٣) .

وهذا **أحمد بن أبى الحوارى** - ريحانة الشام - يشكو لأبى سليمان الدارانى

---

(١) فقه السالكين ص (٥٦) - جمال ماضى - ط دار المدائن .
(٢) مختصر منهاج القاصدين ص (٨٥) - ابن قدامة المقدسى - ط دار الفيحاء ودار عمار .
(٣) صفة الصفوة (٣/ ٢٤٦) - ابن الجوزى - ط دار الفكر .

فيقول: لم أوتر البارحة، ولم أصل ركعتى الفجر، ولم أصل الفجر فى جماعة!!! فقال له: «لما قدمت والله ليس بظلام للعبيد . . . شهوة أصبتها » [١] .

قال ابن الصافى البقال بدينور يقول: كان بدينور سجّان قال لى: « إنى بقيت على باب السجن نيفاً وثلاثين عاماً فما من أحد حمل إلى السجن من الذين أخذهم الحرس بالليل إلا سألته فقلت له: هل صليت العشاء الآخرة فى جماعة إلا قال: لا، ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]» [٢].

ويفسر النبى ﷺ هذه الآية فيقول: « ما اختلج (اضطرب وارتعد) عرق ولا عين إلا بذنب وما يدفع الله أكثر » [٣] .

وهذا من رحمة الله بعباده المؤمنين أن يجعل عقوبة المعصية فى الدنيا حتى تكون تنبيهاً لهم عما بدر منهم، قال **ابن الجوزى**: « فرب شخص أطلق بصره فحرم اعتبار بصيرته، أو لسانه فحرم صفاء قلبه، أو آثر شبهة فى مطعمه، فأظلم سره، وحرم قيام الليل، وحلاوة المناجاة إلى غير ذلك مما يعرفه أهل محاسبة النفوس » [٤] .

بل إن تعجيل عقوبة العبد فى الدنيا من علامات حب الله له، يقول النبى ﷺ: « إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة فى الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه، حتى يوافى به يوم القيامة » [٥] .

ويؤكد هذا **أبو سليمان الدارانى** فيقول: « كلما ارتفعت منزلة القلب كانت العقوبة إليه أسرع » [٦] .

---

(١) حلية الأولياء (١٠/٦) .
(٢) قوت القلوب ص (٨٥) - أبو طالب المكى - ط مطبعة مصطفى البابى الحلبى .
(٣) رواه الطبرانى فى الأوسط والضياء عن البراء كما فى ص ج ص رقم (٥٣٩٧) .
(٤) صيد الخاطر ص (٣٦) .
(٥) رواه الترمذى والحاكم عن أنس، والطبرى عن عمار بن ياسر كما فى ص ج ص رقم (٣٠٥).
(٦) حلية الأولياء (٩/٢٥٧) .

وأهل اليقظة لا يلتذون بالمعصية لأنه (لا ينال لذة المعاصى إلا سكران بالغفلة فأما المؤمن فإنه لا يلتذ بها لأنه عند التذاذه يقف أمامه علم التحريم، وحذر العقوبة، فإن قويت معرفته رأى بعين علمه قرب الناهى [وهو الله] فيتنغص عيشه وقت التذاذه، وما هى إلا لحظة ثم نَدم ملازم، وبكاء متواصل وأسف على ما كان مع طول الزمان، حتى لو تيقن العفو وقف بإزائه حذر العتاب) [١] .

واسمع (يا من معاصيه أكثر من أن تحصى، يا من رضى أن يطرد فيُقصى، يا دائم الزلل وكم ينهى ويوصى، يا جهولاً بقدرنا ومثلنا لا يعصى، إن كان قد أصابك داء داود [٢] ، فنُح نَوْح نُوح [٣] ، تحيا بحياة يحيى) [٤] .

* يبقى المتسابق فى حذر دائم :

فرب طاعة أورثت عزاً واستكباراً :

هكذا كان إبليس أعجب بطاعته فاستكبر عن طاعة الأمر فطرد من رحمة الله ومن هذا كان يحذر **بشر بن الحارث**: صلى يوماً فأطال الصلاة وأحسن ورجل يصلى خلفه فنظر له بشر وقال: « لا يعجبنك ما رأيت منى، فإبليس عَبَدَ الله مع الملائكة دهراً ثم صار إلى ما صار إليه » [٥] .

والعجب فضلاً عن أنه يحبط العمل فإنه يولد فى النفس العديد من أمراض القلوب كالغرور والتكبر والرياء وحب المدح، وهذه الأمراض أخطر بكثير من معاصى الجوارح، لذا قال **مورق العجلى**: « خير من العُجْب بالطاعة ألا تأتى بطاعة » [٦] .

---

(١) صيد الخاطر ص (٩٧) .
(٢) داء داود: معصية داود .
(٣) نح نوح نوح: أى ابك بكاء نوح عليه السلام، ويقال إنما سمى نوح نوحاً لأنه كان نواحاً، أى كثير البكاء من خشية الله .
(٤) الياقوتة ص (٤٨) .
(٥) بشر بن الحارث ص (٧٣) .
(٦) البيان والتبيين للجاحظ (٣/ ٨١) - ط دار الكتب العلمية .

ومن أنجع الأدوية في معالجة داء العُجْب ما صنعه المداوى الحاذق **أبو حامد الغزالي** في صورة مثل يعرف به كل واحد منا قدره فلا يمن أو يغتر، يقول رحمه الله: « الملك العظيم إذا أذن بإدخال الهدايا والذخائر النفيسة والأموال الجليلة، فإذا جاء بقال بباقة بقل، أو قروى بسلة عنب، فيدخل في حضرته ويزاحم أولئك الأغنياء والكبراء بهداياهم الكثيرة الشريفة، وهذا الملك يقبل من هذا الفقير هديته، ويأمر له بأنفس خلعة وكرامة، ألا يكون ذلك منه غاية الفضل والكرم؟!!.

فإذا أخذ هذا الفقير يمن بذلك على الملك ويعجب به ويستعظمه وينسى منة الملك، ألا يقال: هذا مجنون مضطرب العقل، أو سفيه سيىء الخلق عظيم الجهل؟ فالآن إنك إذا قمت لله ليلة وصليت ركعات، فإذا فرغت فتفكر كم قام لله سبحانه في هذه الليلة من الخدم في أقطار الأرض، وكم حضرت في هذه الساعة بباب الله سبحانه من عبادة صافية، وخدمة خاصة عن أنفس خاشعة وأبدان طاهرة وعيون باكية وقلوب عامرة وصدور نقية وأركان تقية، وصلاتك إن كنت بذلت المجهود في تحسينها وإحكامها وإصلاحها فلا تكاد تصلح بحضرة هذا الملك، ولا تتبين في جنب تلك العبادات التي تعرض هنالك، كيف وقد كانت منك عن قلب غافل مختلط بأنواع العيوب، وبدن نجس بأقذار الذنوب، ولسان متلطخ بأنواع المعصية والفضول ؟ .

فانظر أيها العاقل: هل وجهت صلاة من صلواتك إلى السماء كمائدة بعتها إلى بيوت الأغنياء ؟!» [(١)] .

وآثر **الشافعي** الإيجاز فقال: « إذا خفت على عملك العُجب، فاذكر رضا من تطلب، وفي أى نعيم ترغب، ومن أى عقاب ترهب، فمن فكر في ذلك صغر عنده عمله » [(٢)] .

---

(١) منهاج العابدين ص (٢٣٢) بتصرف - أبو حامد الغزالي - ط دار الحكمة .

(٢) سير أعلام النبلاء (١٠/٤٢) .

فإن كنت يقظاً ونجوت من هذا الفخ أتيناك ببشرى **إسحاق بن خالد** يزفها إليك فيقـول: « ليس شيء أقطع لظهر إبليس من قول ابن آدم: ليت شـعرى بماذا يختم لى ؟ عندها ييأس إبليس ويقول: متى يُعْجَبُ هذا بعمله ؟ » (١) .

ورب معصية أورثت ذلاً واستغفاراً:

حتى يقـول إبليس متندماً: ليـتنى لم أوقعه فى هذه المعـصية، فـرب علة كانت سبباً للصحة .

لعل عتبك محمـودٌ عـواقبه   وربما صحت الأجساد بالعلل

قال بعض السلف: « كـان داود بعد التوبة خيـراً منه قبل الخطيئة، ولـهذا قال سبحانه: ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ [ص: ٢٥] فزاده على المغفـرة أمرين: الزلفى وهـى درجة القرب منه، والـثانى حسن المآب وهـو حسن المنقلب وطيب المأوى عند الله » (٢) .

فمن قضى له بالتوبة كان كما قال بعض السلف: إن العبد ليعمل الذنب فيدخل به الجنة، قـالوا: كيف ؟ قـال: « يعمل الذنب فـلا يزال نصب عينيـه خائفـاً منه مشفقاً وجلاً باكياً نادماً مستحيياً من ربه تعالى ناكس الرأس بين يديه منكسر القلب له، فيكون ذلك الـذنب أنفع له من طاعات كثـيرة بما ترتب عليـه من هذه الأمور التى بها سعادة العبد وفلاحه، حتى يكون ذلك الذنب سبب دخوله الجنة » (٣) .

وما تزال المعصية ماثلةً أمامه حتى يصير أعبد الناس، سئل **سعيد بن جبير**: من أعبد الناس ؟ قال: « رجلٌ اجترح من الذنوب وكلما ذكر ذنبه احتقر عمله » (٤).

---

(١) مع العارفين ص ١١١ - ط دار المسلمون الأولى .
(٢) طريق الهجرتين لابن القيم ص (٢٩٦، ٢٩٧) - ط دار ابن حزم .
(٣) الوابل الصيب من الكلم الطيب ص (٦ ، ٧) - ابن قيم الجوزية - ط دار الكتب العلمية .
(٤) حلية الأولياء (٤/٢٧٩) .

إيـــاك ثـم إيـــاك

أن تفخر علـى العاصى بطاعتك، أو تعيـره بمعصيته لأن (وقـوفه بين يدى الله ناكس الرأس، خاشع الطرف، منكسـر القلب، أنفع له وخير من صـولة طاعتك، وتكثرك بها والاعتداد بها، والمنة على الله وخلقـه لها، فما أقرب هذا العاصى من رحمة الله، ومـا أقرب هذا المدل من مقت الله، فـذنب تذل به لديه أحب إليه من طاعة تدل بهـا عليه، وإنك أن تبـيت نائماً وتصبح نادمـاً، خيـرٌ لك من أن تبيت قائمـاً وتصبح مُعجـباً ، فإن المعـجب لا يصعد له عـمل، وإنك إن تضحك وأنت معـترف خـير لك مـن أن تبيت وأنت مـدل، أنين المذنبين أحب إلى الله من زجل المسبحين المدلين، ولعل الله أسقاه بهـذا الذنب دواء استخرج به داء هو فيك وأنت لا تشعر)[1] .

لقى بشر بن الحارث رجلاً سكراناً، فجـعل الرجل يقبله ويقول: يا سيدى، يا أبا نصر، ولا يدفعه بشر عن نفسه، ولما تولى ذرفت عينا بشر بالدموع وقال: « إنه أحب رجلاً على خير توهمه فيه، ولعل المحبوب هلك والمحب نجا »[2] .

* تجعل همة المؤمن متعلقة بالآخرة :

فكل ما فى الدنيا يحركه إلى ذكر الآخرة وكما قالوا: همك ما أهمك .

(ألم تر إلى أرباب الصنـائع لو دخلوا إلى دار مـعـمورة رأيت الـبناء ينظر إلى الحائط والنجار ينظر إلى الباب والنوافذ، والحائك ينظر إلى النسيج فكذلك المؤمن اليقظان: إذا رأى ظلمـة ذكر ظلمة القـبر، وإذا شكا ألما ذكر العقـاب، وإن سمع صوتاً فظيعاً ذكر نفخة الصور، وإن رأى نياماً ذكر الموتى فى القبور، وإن رأى لذة ذكر الجنة)[3] .

روى أن **الحسن البصرى** رحمـه الله أعطى شربة مـاء بارد، فلما أخـذ القدح

---

(١) تهذيب مدارج السالكين ص (١١٩، ١٢٠) .

(٢) صفة الصفوة (٢/١٩٨) .

(٣) صيد الخاطر ص (٣٢١) .

غشى عليه وسقط من يده، فلما أفاق قيل له: ما ذلك يا أبا سعيد ؟ قال: «ذكرت أمنيـة أهل النار حين قـالوا لأهل الجنة: أن أفيـضوا علينـا من الماء أو مما رزقكم الله»[١] .

تخرج فى نفس المدرسـة عالم آخر أُخروى الهـمة هو **عبد الله بن المبارك**، كان أقرانه يتعجبون من أثر كلماته فى القلوب حتى تجلى السر يوماً: كانوا يسيرون معه فى ليلة مظلمة، وفى أيديهم سراج يضـىء لهم الطريق، وبينما هم كذلك إذ هبت ريحٌ لتطفىء نور السـراج ويسـود ظلامٌ دامس للحظات، ثم لم يلبث أحـدهم أن أضاءه، فلمـا أضاء إذا بدموع الرجل تبلل لحيـته فأقروا مـعترفين: « بهذه الخـشية فضل هذا الرجل علينا، ولعله حين فقد السراج فصار إلى الظلمة ذكر القيامة»[٢].

وإذا كانت الظلمة قد أبكت عبد الله بن المبارك، فإن النار أبكت **الربيع بن خثيم وهرم بن حيان** .

وإليك خبرهما :

- مشى **الربيع بن خثيم** فى الحـدادين فلما نظر إلى الأكـوار تنفخ، وإلى النار تلتهب صعق مغـشياً عليه، فقعد ابن مسـعود عند رأسه إلى وقت الصلاة فلم يفق فحمله على ظهره إلى منزله، فلم يزل مغشياً عليـه إلى مثل الساعة التى صعق فيها ففاتته خمس صلوات [٣] .

- مشى **هرم بن حيان** على قوم يصهرون الحديد على النار فجعل يردد: « اللهم أجرنا من النار » لكنه يأبى أن يناله الخير وحده، وهو يعلم أن (من دل على خير فله مثل أجر فاعله) [٤] ، ويعزم على أن يسبق الربيع فيستفيق سادراً فى غفلته أو أسيراً كـبلته شهـوته فتنقشع الغفلة وتنـكسر القيود فـينال مثل ثواب من هداهم،

---

(١) أيها الولد ص (١٦، ١٧) - أبو حامد الغزالى - ط دار ابن حزم .
(٢) صفة الصفوة (٤/ ٩٧) .
(٣) حلية الأولياء (٢/ ١١٠) .
(٤) رواه مسلم وأبو داود والترمذى عن ابن مسعود كما فى ص ج ص رقم (٦١١٥) .

فتجده يرفع صوته عقب آذان الفجر: « عجبت من الجنة كيف نام طالبها، وعجبت من النار كيف نام هاربها » [١] .

* تجعل ميزان الآخرة هو ميزان الربح والخسارة:

أما موازين الدنيا فلا يعرفها متسابقونا، ولو أن ثلة من الأصحاب اجتمعوا وتساءلوا عن أفضل يوم طلعت عليهم فيه شمس لقال أحدهم: يوم مولدى ولأجاب آخر: يوم تخرجى وثالث ورابع . . .

- لكن رسول الله ﷺ يضع هذه الموازين جانباً ويخبر كعب بن مالك رضى الله عنه يوم تاب الله عليه ويقول: « أبشر بخير يومٍ مر عليك منذ ولدتك أمك » [٢] ، أجل . . هذا هو خير يوم، يوم يتوب الله عليك ويقبلك فى الصالحين .

- نبينا ﷺ ينتصب لنا قدوة فى هذا المجال: حيث سأل الصحابة يوماً: أتدرون ما المفلس ؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع . قال: « إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتى وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته ؛ فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح فى النار » [٣] .

ولما ذبحت عنده شاة تصدق بها واستبقى كتفها قالت أم المؤمنين عائشة: ما بقى منا إلا كتفها، تزن الأمر بميزان الدنيا، فردها إلى ميزان السباق - ميزان الآخرة - وقال: « بقى كلها غير كتفها » [٤] .

- وكأن خبر هذه الشاة وصل إلى بلال مولى أبى بكر فيأبى إلا أن يضع بصمته

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/٤٨) .

(٢) رواه الشيخان عن عبد الله بن كعب كما فى اللؤلؤ والمرجان رقم (١٧٦٢) .

(٣) رواه مسلم وأحمد وغيرهما عن أبى هريرة كما فى ص ج ص رقم (٨٧) والسلسلة الصحيحة رقم (٨٤٥) .

(٤) رواه الترمذى رقم (٢٤٧٢) وقال: حديث صحيح .

فى كتابنا لما سئل بلال وكان ماراً بسباق خيل: من سبق ؟ قال: سبق المقربون . قالوا: عن الخيل نسألك . قال: وأنا أدلكم على الخير .

- ويقتفى الأثر خطوة خطوة الزاهد **عبد الواحد بن زيد**: لما أراد أحد الناس أن يكلمه بلغو الحديث قال: ذكر الله أشهى . قال: وحدك ؟ فأجاب: معى ربى وملكاى، قال: أين الطريق ؟ فلم يجب وأشار إلى السماء .

- ميزان الآخرة هذا ينتصب عند نزول البلاء فترى العجب:

أصيب **نصر الدين أخو نور الدين محمود زنكى** خلال حصار بانياس عام ٥٦٠هـ بسهم أذهب أحد عينيه فلما رآه نور الدين قال له: « لو كشف لك من الأجر الذى أُعِد لك لتمنيت ذهاب الأخرى »[1] ، هذا رده ولو كان غيره ممن قعد عن السباق لبكى وناح كما تنوح الثكالى يحسبها محنة، وليست عند أهل اليقظة سوى منحة .

لا يسبقنك الديك

يقظة نتعلمها من معلم همام من غير بنى البشر يعلو صوته مسبحاً وأنت تغط فى نومك، فلا يكونن الديك أكيس منك، ينادى بالأسحار وأنت نائم .

لقد هتفت فى جنح اليل حمامة ... على فنن وهنـاً وإنى نـائم
كذبت وبيت الله لو كنت عاشقاً ... لما سبقتنى بالبكاء الحمائم
وأزعم أنى هائم ذو صبابة ... لربى فلا أبكى وتبكى البهائم

* يتضاعف معها ثواب العبادة أضعافاً كثيرة :

وفى غياب اليقظة تتحول العبادة إلى عادة، يقول **ابن الجوزى**: « تأملت على أكثر الناس عبادتهم فإذا هى عادات، فأما أرباب اليقظة فعبادتهم عبادة حقيقية، فإن العاقل يقول: « سبحان الله » عادة، والمتيقظ لا يزال فكره فى عجائب المخلوقات، أو فى عظمة الخالق، فيحركه الفكر فى ذلك فيقول: سبحان الله، ولو أن إنساناً تفكر فى رمانة، فنظر فى تصفيف حبها، وحفظها بالأغشية لئلا

(١) رحلة فى تكوين حاكم مسلم ص (٣٥) - د. عماد الدين خليل - ط دار الاعتصام .

يتضاءل، وتصوير الفرخ في بطن البيضة، والآدمي في حشا الأم، إلى غير ذلك من المخلوقات، أزعجه هذا الفكر إلى تعظيم الخالق، فقال: سبحان الله ، وكان هذا التسبيح ثمرة الفكر فهذا تسبيح المتيقظين » (١) .

هذا التفكر عدَّه **شقيق البلخي** من الخصلتين اللتين تشغلان المؤمن وتملكان عليه حياته، قال شقيق: « المؤمن مشغول بخصلتين: الاعتبار والتفكر » (٢) .

ليس هذا فحسب بل إن **ابن القيم** يعتبر التفكر (من أفضل أعمال القلب، وأنفعها له حتى قيل: تفكر ساعة خيرٌ من عبادة سنة، فالفكر هو الذى ينقل من موت الغفلة إلى حياة اليقظة، ومن المكاره إلى المحاب، ومن ضيق الجهل إلى سعة العلم ورحبه، ومن مرض الشهوة والإخلاد إلى هذه الدار إلى شفاء الإنابة إلى الله والتجافى عن دار الغرور، ومن مصيبة العمى والصم والبكم إلى نعمة البصر والسمع والفهم عن الله والعقل عنه، ومن أمراض الشبهات إلى برد اليقين وثلج السرور) (٣) .

وصدق رب العزة فى قوله: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [الروم: ٢١]، ولقد حُكِي أن **سفيان الثورى** تفكر يوماً فى السماء وخلقها حتى غشى عليه، وسئلت **أم الدرداء**: « أى عبادة أبى الدرداء كانت أكثر ؟ فقالت: التفكر » (٤) .

وفى الهامة رسول الله ﷺ دفعه هذا التفكر إلى البكاء حتى ابتلت لحيته ثم سجد فبكى حتى بل الأرض، ثم اضطجع على جنبه فبكى حتى إذا أتى بلال رضى الله عنه يؤذنه بصلاة الصبح، قال: يا رسول الله: تبكى وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟! قال: « أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ لقد نزلت علىَّ الليلة آيات، ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها: ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاف**

---

(١) صيد الخاطر ص (٣٢٠) .
(٢) مع العارفين ص (٢٣) .
(٣) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/ ٢١٨) – ط دار الحديث .
(٤) الزهد لابن المبارك ص (٦١) – ط دار ابن خلدون .

اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] »[١] . فكن يقظاً ولا تكن ممن توعدهم رسول الله ﷺ .

فإن غفلت وسهوت قلنا لك: « وا عجباً لك !! لو رأيت خطاً مستحسن الرقم لأدركك الدهش من حكمة الكاتب، وأنت ترى رقوم القدرة ولا تعرف الصانع، فإن لم تعرفه بتلك الصنعة فتعجب كيف أعمى بصيرتك مع رؤية بصرك »[٢] .

ويتضمن التفكر: البحث فى العلوم المختلفة، وإطالة النظر فى خلق الله، والتوسع فى النظر إلى وظائف أجهزة الإنسان، وعجائب الجبال والبحار والغابات، وغير ذلك مما تزدحم به المكتبات السمعية والبصرية .

(ب) قلب عدوه الغفلة :

غفلة مضحكة

هذه الغفلة دفعت **أبا الدرداء** إلى الضحك قائلاً: أضحكنى ثلاث:

مؤمل دنيا والموت يطلبه، وغافل ليس مغفولاً عنه، وضاحك ملء فيه لا يدرى رَضِيَ الله عنه أم سخط عليه .

وسرعان ما يتحول الضحك إلى تحذير حين رأى رجلاً يضحك ملء فيه قائلاً: كيف بك إذا حفر لك من الأرض أربعة أذرع، فلم يضحك الرجل بعدها قط .

ومن نفس المشكاة قبس معروف الكرخى، جلس إلى جماعة، فاغتاب رجلٌ منهم آخر، فأيقظه معروف قائلاً له: يا هذا اذكر يوم يوضع القطن على عينيك .

ثلاث لوحات

هذه الغفلة دفعت **بشر بن الحارث الحافى** إلى محاولة تبسيط الأمر على المسلمين حتى لا يكون لأحد عذر فقال: « إن فى هذه الدار نملة تجمع الحب فى الصيف لتأكله فى الشتاء، فلما كان يوم . . أخذت حبة فى فمها، فجاء عصفور

(١) رواه ابن حبان كما فى السلسلة الصحيحة رقم (١٠٦) .

(٢) التبصرة (١/ ٩٨) - ابن الجوزى - ط دار ابن خلدون، والرقم: الكتابة .

فأخذها والحبة، فلا ما جمعت أكلت ولا ما أملت نالت »[١] .

أو فى لوحة أخرى يرسمها ابن الجوزى يقول:

« الدنيا فخ والناس عصافير، والعصفور يريد الحبة وينسى الخنق، قد نسى أكثر الخلق مآلهم ميلاً إلى لذاتهم، فأقبلوا يسامرون الهوى، ولا يلتفتون إلى مشاورة العقل، ولقد باعوا بلذة يسيرة خيراً كثيراً، واستبدلوا بشهوات مرذولة عذاباً عظيماً، فإذا نزل الموت بأحدهم قال: ليتنى لم أكن، ليتنى كنت تراباً، فيقال له: آلآن وقد عصيت »[٢] .

فإن غيَّمت سُحُب الغفلة على بصرك فلم تتبين لوحتَىْ بشر وابن الجوزى عرضنا لك لوحة ثالثة رسمها الحسن البصرى بألوان براقة كفيلة بأن تقشع الغشاوة وتورث الهداية، يقول رحمه الله: « يا ابن آدم السكين تشحذ، والتنور يسجر، والكبش يعتلف »[٣] .

يضرب لذلك مثلاً للإنسان الغافل عن آخرته اللاهى فى دنياه، فيشبهه بالكبش يأكل العلف يقدم له، والسكين تشحذ لذبحه، والتنور يسجر لطهيه، وهو لاه ساه عن ذلك بطعامه وشرابه .

صيحة فى جوف الليل

هذه الغفلة دفعت أبا داود إلى أن يصيح على درج مسجد دمشق ليلاً:

يا أهل دمشق .. ألا تسمعون من ناصح لكم: إن من كان قبلكم كانوا يجمعون كثيراً، ويبنون مشيداً، ويأملون بعيداً، فأصبح جمعهم دوراً، وبنيانهم قبوراً، وأملهم غروراً .

ولم يكن أبو الدرداء يبتدع أو يؤلف نهجاً جديداً غير نهج رسول الله ﷺ ..

---

(١) بشر بن الحارث ص (٦٥) .

(٢) صيد الخاطر ص (٣٧٣) .

(٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٨٦) ، وحلية الأولياء (٢/ ١٥٢) .

حاشـاه، إنما تعلم هذه الصيحة من رسـول الله ﷺ الذى كان كل ليلـة إذا مضى ثلثـا الليل صاح: « يا أيهـا الناس اذكروا الله . . اذكـروا الله . . جاءت الراجـفة تتبعها الرادفة . . جاءت الراجفة تتبعها الرادفة . . جاء الموت بما فيه » (١) .

ويأبى أبو الدرداء إلا أن يملأ صفحات كتابنا بأنوار كاشفة تبدد لنا ظلمات الغفلة فتـمر به جنازة فـيسأل رجل عـمن يكون صاحب الجنازة التى تمر أمـامهم فـأجابه قائـلاً: هذا أنت !! هذا أنت !!! مسـتشـهداً بقـوله سبحـانه: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠] .

وتستمر الأنوار البراقة تشع من مواقفه حتى عند موته حيث جاء إليه رجل وهو مريض مرض الموت فـقال: يا أبا الدرداء إنك قد أصبحت عـلى جناح فراق الدنيا فمـرنى بأمر ينفـعنى الله به وأذكرك به، فـقال أبو الدرداء: « اجلس ثم اعـقل ما أقـول لك، أين أنت من يومٍ ليس لك من الأرض غـيـر عـرض ذراعين فى طول أربعة أذرع ؟! أقبل بك أهلك الذين كانوا لا يحبون فراقك، وجلساؤك وإخوانك فأتقنوا عليك البنيان، ثم أكثروا عليك التراب ثم تركوك، ثم جاءك ملكان أسودان أزرقان أسماؤهما منكر ونكير فأجلساك ثم سألاك: من أنت ؟ أم على ماذا كنت ؟ أم ماذا تقـول فى هذا الرجل ؟ فإن قلت: والله مـا أدرى سمعت الـناس يقولون قولاً فـقلت قول الناس والله رديت وهويت، فـإن قلت: محمـدٌ رسول الله أنزل عليه الكتاب فآمنت به وبما جاء به فقد والله نجوت وهديت » (٢) .

حـالنـا وحـالهم

هذه الغفلة: دفعت ابن الجوزى إلى أن يجـيب من يسأله: أيجوز لى أن أفسح لنفسى فى مباح الملاهى ؟ فأجاب قائلاً: عند نفسك ما يكفيها من الغفلة .

فإن اعترض معتـرض أتيناه بكلام ابن القيم حيث يقول: لابد من سنة الغفلة، ورقاد الغفلة ولكن كن خفيف النوم .

---

(١) رواه أحمد والترمذى والحاكم عن أبى بن كعب، وحسنه الألبانى فى ص ج ص رقم(٧٧٤٠).
(٢) إثبات عذاب القبر وسؤال الملكين ص (١٨٠, ١٨١) - أبو بكر البيهقى - ط دار الجيل .

انتبه من رقدة الغفلة   فـــالعمـــــر قليل
واطرح سوف وحتى   فهمـــا داء دخـــيل

نعم نحن لا ننكر المباحات لكن نقللها إلى أدنى ما يكفى الجسم، فقد كانت المعصية قديماً تتستر عن أعين العلماء وعن سيوف الأمراء، ولكنها اليوم فى الشوارع والنوادى وفى أى مكان وطأته قدمـاك مما يجعل المؤمن أكثر تأثراً بها من حيث لا يشعـر، ويتولد فى النفس إلف المعـصية واعـتيـاد رؤيتها، مما يجـعل التبـعة أثقل واليقظة أوجب .

قديمـــاً :

كان المؤذن كما ينادى للصلاة ينادى إذا دخل الثلث الأخير من الليل ويقول:

يا رجال الليل جدوا   رب داعٍ لا يُـــــرد
لا يقـــوم الـيل إلا   من لـــه عـزمٌ وجـد

حـــديثاً :

وصل الفجر بالعشاء بالغناء واللهو والمجـون بدلاً مما كان يفعله كثير من السلف الصالح من صلاة الفجر بوضوء العشاء .

غـــافـل وبـــاذل

هذه الغفلة جعلت غافلاً يتعـجب من باذل قائلاً: إلى كم تتعب نفسك ؟ قال: راحتها أريد، وحين سئل **الإمام أحمد**: متى يجد العبـد طعم الراحة ؟ قال: عند أول قدم يضعهـا فى الجنة . المعين واحد، والأرواح متعانقة فـلا عجب أن تسمع نفس المعنى .

أحزان قلبى لا تزول   حتى أبشـر بالقـــبول
وأرى كتابى باليمـــين   وتقـر عينى بالرسول

فى جنازة داود الطائى حيث قام ابن السمـاك خطيباً يخطب الناس بعد أن أُهيل على أخيه التراب ويقول: « يا دواد مـا أعجب شأنك ! وقد يزيد فى العجب أنك

من أهل زمانك، ألزمت نفسك الصمت حتى قومتها على العدل، أهنتها وأنت تريد كرامتها، وأذللتها وأنت تريد عزها، وأجعتها وأنت تريد شبعها، وأظمأتها وأنت تريد ريها، وخشنت الملبس وإنما تريد لينه، وخشنت المطعم وإنما تريد طيبه .

أما كنت تشتهى من الماء بارده، ولا من الطعام طيبه، ولا من الملبس لينه ؟ بلى ولكنك زهدت فيه لما بين يدك مما دعيت إليه ورغبت فيه، فما أصغر ما بذلت، وما أحقر ما تركت وما أيسر ما فعلت فى جنب ما أملت وطلبت » (١) .

صدق والله ابن السماك . ما أيسر ما فعل داود وذلك لما يرى ويكشف له عياناً من عظيم نوال الله أو باهر عطائه حتى يقول حين يعاين الجنة:

فلما تلاقينا وعاينت حسنها   تيقنت أنى إنما كنت ألعب

(جـ) قلب دائب العمل :

فإذا تيقظ القلب وأفاق من غفلته، صار مضغة صالحة تصدر أوامرها إلى الأعضاء فيصلح الجسد كما صلح القلب من قبل . ومن بعد العلم يأتى العمل لأن زكاة العلم العمل به ولأن:

العلم يهتف بالعمل فإن حل وإلا ارتحل

أخى المتسابق: هذا علمك قد علمته، وهذا فهمك قد رشدته، فأين البقية ! حضر داود الطائى مجلس علم لأبى حنيفة فالتفت إليه أبو حنيفة فقال: يا أبا سليمان، أما الأداة فقد أحكمناها، قال داود: فأى شىء بقى ؟ قال: « بقى العمل بهذا العلم يا أبا سليمان » (٢) .

وتستمر هذه المشغلة النفسانية العنيفة مع داود فيرد على حفص بن محمد حين يسأله عن مسألة: « هذه النفس أليس يجمع لها ؟ فإذا فنى العمر فى جمع الآلة فمتى يحارب ؟ إن العلم آلة العمل فإذا فنى عمره فيه فمتى يعمل » (٣) .

---

(١) حلية الأولياء (٧/ ٣٣) .
(٢) السابق (٧/ ٣٤١، ٣٤٢) .
(٣) السابق (٧/ ٣٤١) .

(واعلم أن علماً لا يبعدك اليوم عن المعاصى، ولا يحملك على الطاعة لن يبعدك غداً عن نار جهنم، وإذا لم تعمل اليوم، ولم تتدارك الأيام الماضية فستقول غداً يوم القيامة: ﴿ فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا ﴾ [السجدة: ١٢] ، فيقال: يا أحمق أنت من هناك تجىء) [١] .

واعلم أن علماً لا عمل بعده هو محض هراء وكذب على الله .

- **كذبٌ على الله** : ادعاء الإيمان دون أن تفضحك علاماته من دموع المخبتين، وتسبيح القائمين، وأنين المذنبين .

- **كذبٌ على الله** : زعم رسوخ حب الرسول ﷺ فى القلب، وأنت تضيع سُنَّته، وتفرط فى ميراثه، وتسلك غير طريقه، وتنام والخطيب يخطب على منبره.

- **كذبٌ على الله** : أن تكتب فى شهادة ميلادك ووفاتك الديانة: مسلم، ثم أنت بين ميلادك ووفاتك لا تحمل من الاسلام سوى اسمه ولا من الكتاب سوى رسمه .

- **كذبٌ على الله** : أن تطنطن بالليل والنهار تسمعها أهل الحى: إنى أخاف الله، ثم لا تحمل جوانحك سوى القلب الميت . . فمحارمه تنتهك على يديك، وحدوده تضيع بيديك، وصلواته تفرط فيها بيديك، وبالجملة يراك حيث نهاك، ويفتقدك حيث أمرك .

فما أشد ظلمك يا كاذب ، عفواً فما هذا بكلامى إنه كلام رب العزة ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الزمر: ٣٢] .

فإن جرحتك خشونة كلامى ووجدت علىَّ فيه قلت لك: (ويحك ما بينى وبينك عداوة، غير أني أقول الحق ولا أحابيك فى دين الله عز وجل، قد تربيت على خشرنة كلام المشايخ، إن ظهر منى إليك كلام فخذه من الله ، فإنه هو الذى أنطقنى به) [٢] .

---

(٤) أيها الولد ص(١٦) . (٢) الفتح الربانى ص ٢٤ -عبد القادر الجيلانى- ط دار الريان للتراث.

سراب الأمانى

قلة العمل مع المعرفة إذا صاحبها تطلع إلى أعلى المقامات هى ركض نحو السراب، بل عدها **معروف الكرخى** غروراً وحمقاً وذنباً من الذنوب فقال: «طلب الجنة بلا عمل ذنبٌ من الذنوب، وارتجاء الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور، وارتجاء رحمة من لا يطاع جهلٌ وحمق» (١) .

وأبى **الحسن البصرى** إلا الصراحة فانطلق يفضح: « إن قوماً خرجوا من الدنيا وليس لهم حسنات من كثرة ما ألهتهم أمانى المغفرة، يقول أحدهم: إنى أحسن الظن بربى عز وجل، فلا أبالى أَكَثُر العمل أم قل، وهو كاذب فى ذلك إذ لو كان أحسن الظن بربه حقيقةً لأحسن العمل . قال تعالى: ﴿ **وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [فصلت: ٢٣] » (٢) . سبحان الله .. وكأن الرجل ينظر من وراء أحجبة الزمن إلى حالنا .

وفرق شاسع بين الرجاء والتمنى، إن التمنى يكون مع الكسل ولا يسلك بصاحبه طريق الجد والاجتهاد، والرجاء يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل .

قال **يحيى بن معاذ**: « من أعظم الاغترار التمادى فى الذنوب، مع رجاء العفو من غير ندامة، وتوقع القرب من الله بغير طاعته، وانتظار زرع الجنة ببذر النار، وطلب دار المطيعين بالمعاصى، وانتظار الجزاء بغير عمل، والتمنى على الله مع الإفراط » (٣) .

والآن ارفع كفيك داعياً بما دعا به أبو حامد الغزالى:

« اللهم لا تجعلنا ممن يقول ولا يعمل، ويسمع ولا يقبل، إذا سمعنا الوعظ بكينا، وإذا جاء وقت العمل بما سمعنا عصينا » (٤) .

---

(١) حلية الأولياء (٨/ ٣٦٧) .

(٢) تنبيه المغترين للإمام الشعرانى ص (١١٥) .

(٣) الإحياء (٤/ ١٥١) .

(٤) السابق (٤/ ١٥١) .

ومــاذا بعــد الكــلام ؟!

والآن وقد بلغتك كلماتنا فمست شغاف قلبك لم يبق سوى التشمير عن ساعد الجد، والعمل ثم العمل حتى تطرد الفراغ من القلب، فلا يعود الشيطان يجد له موضع قدم فيبقى على الأعتاب . . بعد أن رأى راية نصبتها نُقِشَ عليها:

(ممنوع الاقتراب)

من يرد ملك الجنان فليدع عنه التواني
وليقم فى جوف ليلٍ مسرجاً نور القران
وليصل صوماً بصومٍ إن هذا العيش فانى

إن عزمت فبادر، وإن هممت فثابر، واعلم أنه لا يدرك المفاخر من كان فى الصف الآخر، العلم لا يحصل إلا بالنصب، والمال لا يجمع إلا بالتعب، واسم الجود لا يناله بخيل، ولا يحوز أحد لقب الشجاع إلا بعد جهد طويل .

أين نفقــات البنــاء ؟

قال الحسن: الملائكة يعملون لبنى آدم فى الجنان، يغرسون ويبنون، فربما أمسكوا فيقال لهم: قد أمسكتم، فيقولون: حتى تأتينا النفقات، فقال الحسن: فابعثوهم - بأبى أنتم وأمى - على العمل.

فإن عرضت لك رفقة فارغة لم تعرف باشتراكك فى سباقنا، ودعوك إلى قتل وقتك فرد عليهم بما رد به **عمر بن عبد العزيز** من قبلك على أشباههم:

قد جاء شغل شامل وعدلت عن طرق السلامة
ذهب الفراغ فلا فراغ لنا إلى يوم القيامة

فلا تعود تبقى خزانة وحدة فارغة، بل خزائن ممتلئة عن آخرها تفيض وتشهد لصاحبها الذى أحق ما يوصف به عمله **(كل يوم فى مزيد)**.

وهكذا كان **الإمام أحمد**، قال إبراهيم الحربى: صحبت أحمد بن حنبل عشرين عامًا صيفًا وشتاءً، حرًا وبردًا، ليلاً ونهارًا، فما لقيته فى يوم إلا وهو زائد عليه بالأمس.

عمل سبقوا به من سواهم من سلف أو خلف، قال هشيم تلميذ **منصور بن زادان**: كان لو قيل له: إن ملك الموت على بابك ما كان عنده زيادة من العمل.

همة عالية وعزيمة ماضية بلغوا منها ما لو قيل لأحدهم: يوم القيامة غدًا ما وجد مزيداً ليفعله كما كان الحال مع **صفوان بن سليم**، يقول رفيقه أنس بن عياض: رأيت صفوان لو قيل له: غدًا يوم القيامة ما كان عنده مزيد على ما هو عليه من العبادة، يريد منصور وصفوان بذلك غلق الباب فى وجه من أراد مسابقتهما بمزيد عمل يكثر عما أتيا به.

(د) قلب يحدوه التطلع :

المتسابق الذى حقق هذه الصفة فى نفسه جسده فى الدنيا، لكن قلبه يحلق فى آفاق الآخرة يهيم فى عشق الحور العين، يحلم بأنهار من لبن وعسل وخمر لذة للشاربين، هذه هى حياته، فإذا جاءه الموت كان بوابته التى يعبر بها إلى ما كان يحلم به ويتمناه، وكان الفوز وأى فوز، فينشد معلنًا: فزت ورب الكعبة.

صدح بها **حرام بن ملحان** فما فهمها المشركون، ذلك أنهم ما ذاقوا. . وذاق، وما عرفوا. . وعرف.

الخُطَّاب كثيرون والمهر غال، من صفات الخاطب أن يستغفر فى السحر، وكثير من الخطاب ينام عن صلاة الفجر، ومن صفاته أن يقدم روحه هدية لمخطوبته وبعضهم يبخل بدرهمه.

ذرنى أنل ما لا ينال من العلا فصعب العلا فى الصعب والسهل فى السهل
تريد إدراك المعالى رخيصة ولا بد دون الشهد من إبر النحل

قال النبى ﷺ **لربيعة بن كعب الأسلمى**: سلنى؟ فما وجد أنفس من هذا الكنز

يشتريه: أسألك مرافقتك فى الجنة، فطلب النبى ﷺ الثمن وقال: «فأعنى على نفسك بكثرة السجود» (١).

تطلع نتعلمه من نابغة هو **أنس بن النضر** الذى لم يشهد بدرًا فقال: لئن كان لرسول الله قتال مع قريش ليرين الله ما أصنع، رآه سعد بن معاذ يوم أحد فقال: إلى أين؟ فأجاب: «يا سعد بن معاذ الجنة ورب الكعبة، إنى لأجد ريحها من دون أحد»(٢)، ولقى ربه شهيدًا، ولم تعرفه أخته إلا ببنانه، وجد به بضع وثمانون ضربة بسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم.

أيها المتسابق المتطلع: لا يخدعنك عز فانٍ، ولا يغرنك ملك زائل، واعلم أن الجنة هى الوطن، وإنما تقضى الأوطار فى الأوطان، أما الدنيا فدار غربة منذ أهبط إليها الأبوان.

كم منزل فى الأرض يألفه الفتى ... وحنينه أبدًا لأول منزل
فحى على جنان عدن فإنها ... منازلنا الأولى وفيها المخيم
ولكننا سبى العدو فهل ... نعود إلى أوطاننا ونسلم

ثالثا: قلب دائم الثأر

والصفة الثالثة أن يكون القلب قويًا، دائم الثأر من شيطانه، فإذا غافله شيطان فى غلبة شهوة فغلبه، أو ورود هوى فهوى، جد ولمح نور قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ**﴾ [هود: ١١٤]، فسار على ضوئه، وطرد عدوه وأضناه.

لكن كيف يتم ذلك؟

اعلم أنه ما من أحد منا إلا ومعه ملك وشيطان، فإذا عمل أحدنا بطاعة الله

---

(١) رواه مسلم والنسائي وأبو داود وأحمد عن ربيعة بن كعب كما فى صحيح الترغيب والترهيب رقم (٣٨٤).
(٢) رواه الشيخان وغيرهما عن أنس بن مالك.

ابتدره الملك وطرد عنه الشيطان فلا يتولاه إلا الملك، ولا يدله إلا على خير، وهذا هو فهم أحد سلفنا الصالح حيث يقول: إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦].

وإذا حلَّت الهداية قلبًا نشطت للعبادة الأعضاء

وإذا عمل أحدنا بمعصية الله ابتدره الشيطان وطرد عنه الملك فلا يتولاه إلا الشيطان فلا يدله إلا على شر، وهذا قولهم: إن من عقوبة السيئة السيئة بعدها، قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥].

بلغة أخرى: من عمل طاعة من الطاعات وفرغ منها فعلامة قبولها أن يصلها بطاعة أخرى، وعلامة ردها أن يعقب تلك الطاعة بمعصية، فمن رُئى فى زيادة أعمال وترقى أحوال فهى بشارة على قبول عمله بإذن الله.

عروة بن الزبير لمح هذا الشعاع الإيمانى فالتقطه وعكسه علينا فى قوله: ما من حسنة إلا وهي تدعو أختها، وما من سيئة إلا وهى تدعو أختها، فإذا غلبتك شهوة واعترتك غفلة فاعلم أن الشيطان قد ابتدرك، عليك بطرده وملاحقته والثأر منه، وذلك باتباع المعصية بطاعة، عندئذ يتداركك الملك ويفر منك الشيطان.

وإذا تمثل القلب هذه الصفة وكان دائم الثأر كان (كقلب **خالد بن معدان** يحدثنا عن الشيطان فكأنما هو ممسك به يعصره ويحطم ضلوعه... يقول: «ما من عبد إلا وله شيطان متبطن فقار ظهره لاوٍ عنقه على عاتقه، فاغرا فاه على قلبه، فإذا ذكر الله خنس، وإذا غفل وسوس، فكأن الشيطان ـ والله ـ متكشف أمامنا بكل عوراته، وكأنا أوتينا بهذه الكلمات أسلحة النصر جميعًا فى مغالبته) [١].

وقلوب السابقين قلوب دائمة الثأر من نفس نوع قلب خالد:

- قلوب يعلم كل منها أنه «إذا أكل شبهة بشهوة نفس ينبغى أن يعاقب البطن بالجوع، وإذا نظر إلى محرم ينبغى أن يعاقب العين بمنع النظر، وكذلك يعاقب كل

(١) مع العارفين ص (١٠٠).

طرف من أطرافه بمنعه من شهواته، هكذا عادة سالكى طريق الآخرة»[(١)].

- قلوب يعلم كل منها أن من أراد الوصول فلينفذ وصية الرسول ﷺ:

«وأتبع السيئة الحسنة تمحها»[(٢)].

- قلوب يعلم كل منها أن من (العجيب أنك تعاقب أهلك وولدك على ما يصدر منهم من سوء خلق، وتقصير فى أمرك، ثم تهمل نفسك، وهى أعظم عدو لك، وأشد طغيانًا عليك، وحذرك من طغيانها، أعظم من حذرك من طغيان أهلك، فإن غايتهم أن يشوشوا عليك معيشة الدنيا، ونفسك هى التى تنغص عليك عيش الآخرة فهى بالمعاقبة أولى من غيرها)[(٣)].

وإليك أخبار الثأر والانتقام:

أ ـ جهاد ثأرى:

يعلمه لنا **عبد الله بن قيس** حيث يقول: كنا فى غزاة لنا وحضر العدو وإذا رجل أمامى يخاطب نفسه، ويقول: أى نفسى ألم أشهد كذا وكذا فقلت لى: أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت؟!! والله لأعرضنك اليوم على الله أخذك أو تركك، فحمل الناس على الكفار فكان أول المحاربين ثم إن المسلمين انكشفوا فكان فى موضعه حتى انكشفوا مرات وهو يقاتل ثابت لا يلين، والله ما زال دأبه حتى رأيته صريعًا به ستون طعنة.

ب ـ صدقة ثأرية:

يهز بها **أبو طلحة** كل حريص على الدينار والدرهم هزًا شديدًا لا بيده، بل بمجرد سماع هذا الخبر:

اشتغل قلبه فى صلاته بطائر فى حائطه، فتصدق بالحائط كله كفارة له،

(١) الإحياء (٣/ ٤٣٠).

(٢) رواه أحمد والحاكم عن أبى ذر والبيهقى فى الشعب عن معاذ، وحسنه الألبانى ص ج ص رقم (٩٦).

(٣) الإحياء (٤/ ٤٣٢).

ويسابقه **الفاروق عمر** فى نفس الميدان حيث شغله حائط ثمنة ٢٠٠ ألف درهم عن صلاة العصر فتصدق به، وكان يضرب نفسه بالدرة ويقول: ما حملك على أن صنعت كذا يوم كذا وكذا؟

جـ ـ قيام ثأرى :

لكن **عبد الله بن عمر** (الابن) له مسلك آخر فى معاقبة النفس والثأر من شيطانه حيث كان إذا فاتته صلاة العشاء جماعة قام ليلتها حتى يطلع الفجر.

د ـ تنويع مسالك الثأر :

لكن الشيطان ينتبه فيلبس درعًا تتكسر عليه سهام الثأر الإيمانى، فوجب التنويع. قال **عبد الله بن وهب القرشى**: جعلت على نفسى كلما اغتبت إنسانًا صيام يوم فهان على، فجعلت عليها كلما اغتبت إنسانا صدقة درهم ثقل علىَّ وتركت الغيبة.

رابعا : قلب لا يعرف التثاؤب

والصفة الرابعة والأخيرة هى عدم معرفة هذا القلب للتثاؤب، وهكذا كان النبى ﷺ حيث أنه لم يتثاءب قط، وفى هذا إيماءة لطيفة إلى ما كان عليه من عزيمة صادقة وإرادة نافذة، كيف لا وهو غرة أولى العزم من الرسل.

وما علينا بعد أن عرفنا ديدنه إلا أن نسلك طريقه، بذلك أمرنا ربنا فقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، فإن خالفنا النهج وحدنا عن الطريق ورغنا روغان الثعالب كان الوعيد: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

كان قلب الإمام **ابن الجوزى** من هذا النوع من القلوب، كانت الخواطر تأتيه فى أوقات راحته فإن تركها تركته، لكن الهمة العالية تأبى عليه ذلك فينفض تراب النوم وغبار الكسل ويصطاد الخاطرة قبل هروبها، ويقيدها قبل فكاكها متمثلاً قول الشاعر:

العلم صــيد والكتابة قيده   قيّد صيودك بالحبال الواثقة

فمن الحماقة أن تصيد غزالة   وتفكّها بين الخــلائق طالقة

ولأن السيل اجتماع النقط، فإن الخاطرة تلـو الخاطرة صنعت كتابه القيم (صيد الخاطر).

لكن النوم فطرة فطرنا الله عليها، فسبـحان من تفرد بالجلال والكمال ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾، وإن كان كل الناس ينامون إلا أن من يتقن فن النوم منهم قليل، فيا ترى ما هو فن النوم؟

تناظر يوما **أبو موسى الأشعرى ومعاذ بن جبل** رضى الله عنهما «فقال أبو موسى: أنا أقوم أول الليل وأنام آخره، وقال معاذ: وأنا أنام أول الليـل وأقوم آخره فأحتسب نومتى وأحتسب قومتى» (١).

فيعلمنا معاذ فن النوم، ويضع لنا هذه المعادلة المربحة:

عادة + نية صالحة = عبادة

وهكذا فى سائر العبادات كالطعام واللباس والزواج بل فى كل خطوة، وفى كل سكنة وإن كانت ارتداء حذاء، أو نظرة فى مرآة، كما روى هشام بن عبد الملك عن عمر بن عبد العزيز: ما ظننت أن عمر خطا خطوة إلا وله فيها نية.

فهذه هى النفوس التى لا تعرف كيف تفتح فمها متثائبة من كثرة النوم وذلك أن: من أراد الراحة والسكون فإن الموت والقبر يزودانه منهما حتى يشبع.

- وتأمل إذا أكثرت النوم وآثرت الراحة قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح:٧، ٨]، والمعنى: إذا فرغت من تبليغ دعوتك بالنهار ومن مجاهدة الباطل والصدع بالحق بين الناس، ثم جن بعد ذلك عليك الليل فلا نوم ولكن انصب: أى قم لله واقفًا منتصبًا بين يديه قائما ليلك مصليًا داعيًا مستغفرًا متزودًا لليوم التالى.

(١) تاريخ بغداد (٢/ ٣٧٥) - الخطيب البغدادى - ط دار الكتاب العربى.

- وإليك المزيد واسمع حديث رسول الله ﷺ الذى وعى ما علمه ربه فقال: «إن قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليغرسها»(١).

حديث محير: متى تثمر هذه الفسيلة، وقد توقف الزمن وقامت القيامة؟ ومن ذا الذى سيأكل منها وقد فنيت الدنيا والناس إما إلى جنة وإما إلى نار؟ والجواب: لا أحد، لكن رسول الله ﷺ يريد أن يربى فينا قلوبًا تبذر الخير دون انتظار الأجر إلا من الله بل دون أن ترى ثمرة عملها، قلوبًا بحق لا تعرف التثاؤب.

- وورثها النبى ﷺ صحابته فلقد مر رجل على أبى الدرداء رضى الله عنه وهو يزرع جوزة فقال: أتغرس هذا وأنت شيخ كبير؟ وهذه لا تطعم إلا فى كذا وكذا عاما!! فقال أبو الدرداء: ما على أن يكون لى أجرها، ويأكل منها غيرى.

عذر غير مقبول

فإن قدمت عذرًا بين يديك مفاده أن أبا الدرداء شيخ مسن يقف على شفير القبر فوجب عليه أن يَجِدّ ويطلّق التثاؤب، إن كان هذا قولك فندناه بما ذكره الخطيب البغدادى عن طلب **على بن عاصم** للحديث فقال: «كان غلامًا دفع إليه أبوه مائة ألف، وقال له: اذهب لا أرى لك وجهًا إلا بمائة ألف حديث.

خرج الغلام قال: خرجت إلى الكوفة أنا وهشيم لنلقى منصورًا (يقصد منصور ابن زادان الثقفى الواسطى) فلما خرجت من واسط سرت فراسخ لقينى إما معاوية وإما غيره فقلت له: أين تريد؟ قال: أسعى فى دين علىّ. قال: فقلت: ارجع معى فإن عندى أربعة آلاف درهم أعطيك منها، فرجعت فأعطيته ألفين ثم خرجت، فدخل هشيم الكوفة بالغداة، ودخلتها بالعشى فذهب هشيم فسمع من منصور أربعين حديثًا، ودخلت الحمام فلما أصبحت مضيت فأتيت باب المنصور

---

(١) رواه البخارى فى الأدب عن أنس كما فى ص ج ص رقم (١٤٣٧) والسلسلة الصحيحة رقم(٩).

فإذا جنازة فقلت: ما هذه؟ قالوا: جنازة منصور فقعدت أبكي فقال لي شيخ هناك: ما يبكيك؟ قال: قلت: قدمت على أن أسمع من هذا الشيخ وقد مات. قال: أفأدلك على من شهد عرس أمّ هذا؟ قلت: نعم، قال: اكتب: حدثني عكرمة عن ابن عباس.. قال: فجعلت أكتب عنه شهرًا فقلت له: من أنت رحمك الله؟ قال: أنت تكتب عليَّ منذ شهر ولم تعرفني؟ أنا حصين بن عبد الرحمن، وما كان بيني وبين أن ألقى ابن عباس إلا سبعة دراهم، أو تسعة دراهم (كناية عن قربه منه) فكان عكرمة يسمع منه ثم يجئ فيحدثني» [١].

فانظر ـ حفظك الله ـ كيف تصدق الغلام بنصف ماله ثم يجد في طلب مائة ألف حديث ولسان حاله يقول:

ماتت الراحة فاقرأ عليها الفاتحة!!

هكذا كافأهم الله!!

بهذا وحده بيّض الله وجوههم وأفاض عليهم من نوره مثل **الحافظ الضياء أبو محمد المقدسي** (كأن النور يخرج من وجهه، ضعف بصره من كثرة الكتابة والبكاء)[٢].

ومثل والد الإمام الرافعي حيث يروى الإمام عن بعض أحوال أبيه **محمد بن عبد الكريم القزويني الرافعي**: «حكى لي مؤذن المسجد وهو رجل صالح أن والدي خرج لصلاة العشاء، وكانت ليلة مظلمة. قال: فرأيت نورًا فحسبت أن معه سراجًا، فلما وصل لم أجد معه شيئًا فذكرت له، فلم يعجبه وقوفي على حاله وقال لي: أقبل على شأنك» [٣].

وعلى الطريق جهبذ آخر هو الإمام مالك، قال عبد الرحمن بن قاسم العتقي المصري ـ أحد أصحاب مالك ـ:

(١) سير أعلام النبلاء (٩/ ٢٥٣).
(٢) علو الهمة ص (١٦٨) - محمد إسماعيل المقدم - ط مكتبة الكوثر.
(٣) صفحات مشرقة من حياة السابقين ص (٣٥٠).

«كنت آتى مالكًا فـأسأله عن مسألتين، ثلاثة، أربعـة، وكنت أجد منه فى ذلك الوقت انشراح صـدر، فكنت آتيه فى كل سحر، فـتوصدت مرة عـتبته، فـغلبتنى عينى فنمت، وخرج مـالك إلى المسجد، ولم أشعر به، فـركلتنى جارية سوداء له برجلها، وقالت لى: إن مولاك قد خرج، ليس يغـفل كما تغفل أنت اليوم له تسع وأربعون سنة، قلما صلى الصبح إلا بوضوء العتمة»[1].

ظننت أن الإمام مـالك مولاه وسيده وأنه عـبده من كثـرة اختلافه عليـه كأنه لا يجد مهراً يخطب به الحور غير هذا!!.

ولئن كان التاجر يـطرب لسماع خشخشة دنانيـره ولرؤية بريق ذهبه، ولئن كان أهل اللهو والطرب يلتذون بضـرب الأوتار وعزف الألحان فإن لذة **الإمام الشافعى** وصفها فقال:

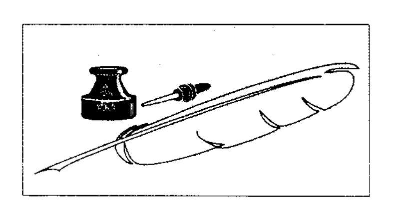
سهـــرى لتنقيح العـــلوم ألذ لى ... من وصـــل غانية وطـــيب عنـاق

وصرير أقـــلامى على صفحـاتها ... أحـــلى من الـــدوكاء[2] والعشاق

وألـــذ من نقر الفتـــاة لدفهـــا ... نقـر لألقى الرمـــل عـــن أوراق

وتمـــايلى طـربًا لحـــل عـــويصة ... فى الدرس أشهى من مدامة ساق

أأبيـت سهران الـــدجى وتبيتـــه ... نومًا وتبغـى بعـــد ذاك لحـــاق



(١) صفحات من صبر العلماء ص (٣٩، ٤٠) - العلامة أبو غدة - ط مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب.

(٢) الدوكاء: الحـجر الذى يسحق به الطيب، والمراد بالدوكـاء والعشاق هنا مـقامان من المقـامات الغنائية العراقية.

الفصل الرابع

كيف تجعل قلبك أسرع القلوب

أولاً: أن تفىء إلى واحـات الإيمـان.

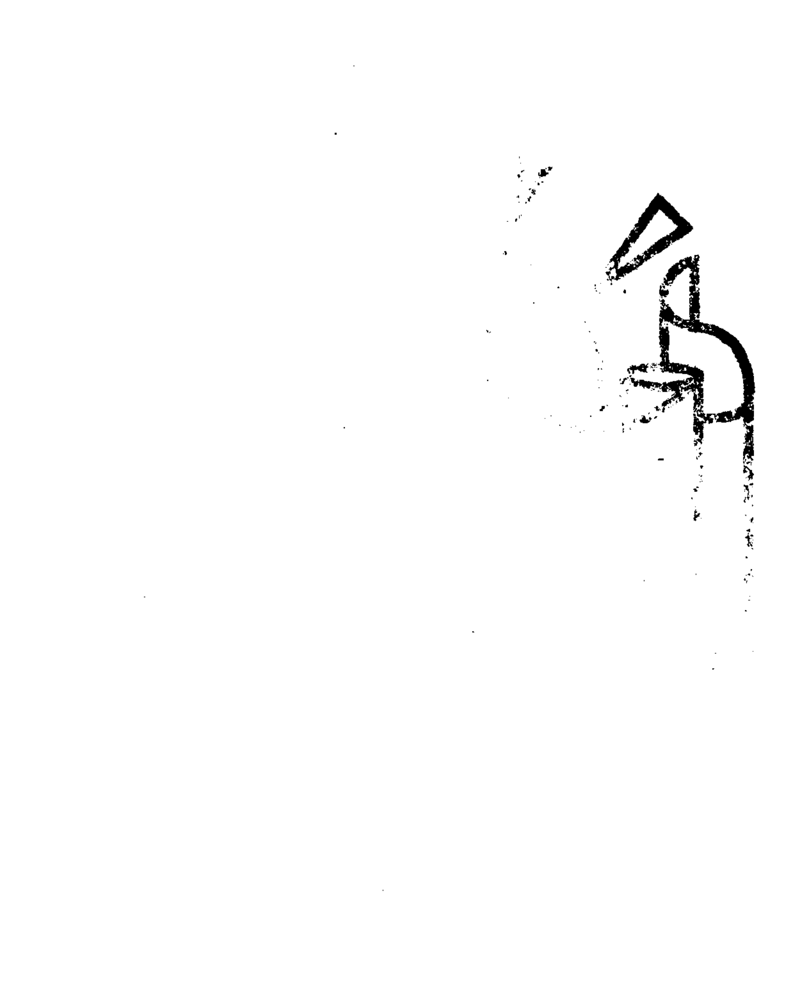
ثانياً: أن تتعرف على عقبات الطريق .

ثالثاً: أن تنفـذ الوصـايا العشر .

رابعاً: أن تعرف أى العمـل أفضل .



لما تنافس المتسابقون بالخيرات فى كسب الحسنات، وعلو الدرجات، كان الحسد فى حقهم من المباحات، قال ﷺ: «لا حسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وأطراف النهار» متفق عليه.



كيف تجعل قلبك أسرع القلوب؟

أولاً : أن تفئ إلى واحات الإيمان

هذه الواحات لا توجد فى الصحارى القاحلة، بل مكانها تلك النفوس التى تحولت إلى صحارى لجفافها بسبب ما أصابها من حرارة شمس المادية الحارقة، وحب الدنيا الطاغى فجاءت هذه الواحات لترطب القلوب المتسابقة، وتمدها بأسباب البقاء والنقاء، فليست استراحات نوم إنما استراحات عون يحمل فيها القلب زاده الذى يسير به إلى الله، ذلك الزاد الذى بفقده يموت القلب فيخسر السباق، ويتخلف عن الركب ركب عكاشة وأشباه عكاشة، فلا تمر على الأسطر مرور النيام، ولكن حلق بقلبك فوق كل واحة، وتزود منها ثم انطلق إلى الواحة التى تليها.

والآن استعد.. الرجاء ربط الأحزمة فنحن على استعداد الهبوط فى مطار الواحة الأولى... ٥ ... ٤ ... ٣ ... ٢ ... ١ ...

الواحة الأولى:

ذكر الموت

سألنا متسابق فقال: لماذا اخترتم واحة ذكر الموت لتكون أول واحة يأوى إليها المتسابقون؟

فأجبناه وقلنا: لأن الرسول ﷺ كذا فعل، ونحن لا قدوة لنا غيره، ولا أسوة لنا سواه، واسمع معنا ما رواه سهل بن سعد الساعدى، قال سهل: «مات رجل من أصحاب النبى ﷺ فجعل أصحاب الرسول ﷺ يثنون عليه ويذكرون من عبادته، ورسول الله ساكت، فلما سكتوا قال: هل كان يكثر ذكر الموت؟ قالوا: لا. قال: فهل كان يدع كثيرًا مما يشتهى؟ قالوا: لا. قال: ما بلغ صاحبكم كثيرًا

مما تذهبون إليه»[(١)].

ما سأل رسول الله ﷺ عن صلاة ولا صدقة ولا صيام، إنما سأل عن الأهم فالمهم: ذكر الموت أولاً ثم بعده كل شيء.. كل شيء.

المتسابقون الأذكياء فقط هم الذين يملؤون حقائبهم القلبية من هذه الواحة ـ الأذكياء ـ هكذا وصفهم رسول الله ﷺ، يقول ابن عمر: «أتيت النبي ﷺ عاشر عشرة، فقام رجل من الأنصار فقال: يا نبي الله من أكيس الناس؟ قال: أكثرهم ذكرًا للموت وأكثرهم استعدادًا للموت، أولئك الأكياس، ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة» [(٢)].

لكن المتسابق الفذ يخشى أن يفارق ذكر الموت قلبه فيجعل عليه قفلاً إيمانيًا يضمن عدم تسرب ذكر الموت منه، يعلمنا صناعة هذه الأقفال حدّاد إيماني بارع هو الربيع بن خثيم حيث يقول: «لو فارق ذكر الموت قلبي ساعة واحدة لفسد» [(٣)].

لكن الشيطان يتحفز فإذا غفل الإنسان لحظة سرق المفتاح وتسلل إلى القلب فتسري الغفلة في الأوصال فوجب التنبيه عن طريق برقية من **عبد الله بن مسعود** جاء فيها:

«إنكم في ممر الليل والنهار، في آجال منقوصة، وأعمال محفوظة، والموت يأتي بغتة، من زرع خيرًا يوشك أن يحصد رغبة، ومن زرع شرًا يوشك أن يحصد ندامة، ولكل زارع مثل ما زرع» [(٤)].

لغز الشاطبي

كان **الإمام الشاطبي** صاحب كتاب الموافقات كثيرًا ما يتمثل هذه الأبيات:

أتعرف شيئًا في السماء يطير ... إذا سار هاج الناس حيث يسير

(١) رواه الطبراني بإسناد حسن، وأورده القرضاوي في المنتقى رقم (٢٠٧٩).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت والطبراني في الصغير بإسناد حسن، وأورده القرضاوي في المنتقى رقم (٢٠٧٨).

(٣) الإحياء (٣/٤٧٩).

(٤) سير أعلام النبلاء (١/٤٩٧).

فتلقاه مركوبًا وتلقاه راكبًا ... وكل أمير يعتليه أسير
يحث على التقوى ويكره قربه ... وتنفر منه النفس وهو نذير
فلم يستزر عن رغبة فى زيارة ... ولكن على رغم المزور يزور

هل عرفت الحل؟ إنه النعش، من امتطى صهوته كان أسيره، إذا رآه الناس قصر أملهم وزاد عملهم، ومع ذلك يكرهه الناس وينفرون من رؤيته، بل ويتناسونه حتى يزورهم رغمًا عنهم.

رحم الله **الإمام الشاطبى**، كان كلما لمس غياب ذكر الموت عن القلوب أنشد لغزه وذكر نعشه، لأنه تعلم وعلم أن ذكر الموت هو الحياة، وأن الاتعاظ برؤية النعش على الأعناق هو السبيل إلى الفوز فى هذا السباق.

وإذا كان الموت غائبا عنك لحظة قراءة هذه الكلمات فلابد للغائب من وصول، ولابد بعد الفراق من لقاء.

هكذا فهم الخليفة الرابع **على بن أبى طالب** ـ رضى الله عنه ـ حقيقة الموت فقال: «إن الدنيا قد ارتحلت مدبرة، وإن الآخرة قد ترحلت مقبلة»[1]، وإذا كان الأمر كذلك فما أسرع الملتقى وما أعجل الوصول.

فإذا كنت من أصحاب العزم الفتىّ والقلوب السّباقة فما أحلى هذا اللقاء وما أشد الشوق إليه، مصداق قول رسول الله ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه»[2].

ولقد كان صحابة رسول الله ﷺ كما أرادهم يحبون لقاء الله، يصفهم **أبو عتبة الخولانى** فيقول: «كان من صفة أصحاب رسول الله ﷺ أن لقاء الله أحب إليهم من الشهد (العسل فى شمعه)، وكانوا يحبون الموت أكثر مما يحب أحدكم الصحة»[3].

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٧١) - ابن قيم الجوزية - ط دار الجيل .
(٢) رواه الشيخان وأحمد والترمذى عن عائشة وعن عبادة كما فى ص ج ص رقم (٥٨٤٠) .
(٣) تنبيه المغترين ص (٢٧) .

من أجل هذا رحّب معاذ بن جبل عند احتضاره بالموت قائلاً له: «مرحبًا بالموت زائر مغيب، وحبيب جاء على فاقة» [١]، كأنه يستقبل حبيبًا طال انتظاره وزاد شوقه إليه.

أنا لا أخاف الموت بل هو بغيتى ووسيلتى لتحقق الغايات
فبه يتاح لى اللقاء وتزدهى روحى برؤية سيد القدوات

وليس هذا بعجيب على من سلك هذا الطريق، لأن (من كان فى سجن التقى فالموت يطلقه، ومن كان هائمًا فى بوادى الهوى فالموت له حبس يوثقه، موت المتعبدين عتق لهم من استرقاق الكد ورفق بهم من تعب المجاهدة، وموت العصاة سبى يرقون به لطول العذاب) [٢].

وسائل ذكر الموت

* الوسيلة الأولى: زيارة القبور ودفن الموتى

عن عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، ألا فزوروها، فإنها ترق القلب وتدمع العين وتذكر الآخرة» [٣].

ويقدم لنا الرسول ﷺ الأنموذج العملى، فيروى البراء بن عازب فيقول: «بينما نحن مع رسول الله ﷺ إذ بصر بجماعة فقال: علام اجتمع هؤلاء؟ قيل: على قبر يحفرونه. قال: ففزع رسول الله ﷺ فبدر بين يدى أصحابه مسرعًا حتى انتهى إلى القبر فجثا عليه، قال: فاستقبلته من بين يديه، لأنظر ما يصنع، فبكى حتى بل الثرى من دموعه، ثم أقبل علينا، قال: أى إخوانى! لمثل هذا اليوم فأعدوا» [٤].

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ص (٤٩٦).
(٢) المدهش ص (٢٤١).
(٣) رواه الحاكم فى المستدرك عن أنس كما فى ص ج ص رقم (٤٤٦٠).
(٤) رواه أحمد وابن ماجه، وحسنه الألبانى فى ص ج ص رقم (٢٦٥٦) والسلسلة الصحيحة رقم (١٧٥١).

وينتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ويرث الأمر من بعده **علي بن أبي طالب**، فعن كميل بن زياد: خرج الإمام علي يومًا إلى المقابر فلما أشرف عليها قال: «يا أهل القبور.. يا أهل البلى.. يا أهل الوحشة ما الخبر عندكم؟ فإن الخبر عندنا: قد قسمت الأموال، وأيتمت الأولاد، واستبدلت الأزواج .. فهذا الخبر عندنا فما الخبر عندكم؟ ثم التفت إليَّ فقال: يا كميل.. لو أذن لهم في الجواب لقالوا: إن خير الزاد التقوى ثم بكى. وقال: يا كميل القبر صندوق العمل، وعند الموت يأتيك الخبر»[1].

ويخبرنا **أسيد بن حضير** بما يفكر فيه كلما شهد جنازة فيقول: ما شهدت جنازة فحدثتني نفسي بشيء سوى ما هو مفعول به، وما هو صائر إليه، ولما مات أخو مالك بن دينار خرج مالك في جنازته يبكي ويقول: والله لا تقر عيني حتى أعلم إلى ماذا صرت ولا أعلم ذلك ما دمت حيًا.

وإذا ما نفذ المتسابق وصيتنا وشهد الجنائز أحيًا الله قلبه من موات فبكى لا على الميت بل على نفسه، كما فعل **إبراهيم الزيات** لما نظر إلى أناس يترحمون على ميت قال لهم: لو ترحمون على أنفسكم لكان خيرًا لكم، إنه نجى من أهوال ثلاث: وجه ملك الموت وقد رآه، ومرارة الموت وقد ذاق، وخوف الخاتمة وقد أمن.

ويبكي على الموتى ويترك نفسه ويزعم أن سيطول فيها بقاؤه
ولو كان ذا رأي وعقل وفطنة لكان عليه لا عليهم بكاؤه

* الوسيلة الثانية : مشاهدة المحتضرين

هكذا ذكروه فأحيا الله قلوبهم، فإن لم يكفك ما قلنا وطلبت المزيد أجبناك إلى طلبك وقلنا:

إن مشاهدة المحتضرين، وملاحظة سكرات الموت ونزعاته، مما يقطع عن النفوس لذاتها، ويطرد عن القلوب مسرّاتها، ويمسح الأجفان من النوم، والأبدان

(١) حياة الصحابة للكاندهلوي (٣/ ٣٠٧، ٣٠٨) .

من الراحة، ويبعث على العمل، ويزيد فى الاجتهاد والتعب، والكيّس من ملأ كل ذرة من جسده من هذا الزاد، فيكفيه فى سفرته الإيمانية حتى يوصله إلى قبره، تمامًا مثل ما فعل **الحسن البصرى**، فقد ذكر عنه أنه دخل على مريض يعوده، فوجده فى سكرات الموت، فنظر إليه فى كربه وشدة ما نزل به، فرجع إلى أهله بغير اللون الذى خرج به من عندهم، فقالوا له: الطعام يرحمك الله. فقال: يا أهلاه، عليكم طعامكم وشرابكم فوالله رأيت مصرعًا لا أزال أعمل له حتى ألقاه.

أما نحن فإذا حضرنا قريبًا لنا قد حضرت منيته ما تكلمنا إلا فى ميراثه، وكم سيخلف لمن بعده، وما فكرنا إلا فى الحيلة التى ننال بها بعض تركته.

تالله لو عاش الفتى فى دهره ... ألفًا من الأعوام مالك أمره
مستمتعًا فيها بكل نفيسة ... متلذذًا فيها بنعمة عصره
لا يعتريه السقم فيها مرة ... كلا ولا ترد الهموم بباله
ما كان هذا كله فى أن يفى ... بمبيت أول ليلة فى قبره

* الوسيلة الثالثة: طريقة أبى إسحاق

وتختلف أساليب التذكير بالموت من متسابق لآخر، فإن شئت أخذت بطريقة **أبى إسحاق الجبنيانى** حيث وُجد بعد موته رقعة تحت حصيرة مكتوبة بخطه: «رجل وقف له هاتف قال له: أحسن عملك، فقد دنا أجلك»، قال ولده عبد الرحمن: إذا كان قصّر فى العمل أخرج الرقعة فنظر فيها ورجع إلى جده.

ما زال يلهج بالرحيل وذكره ... حتى أناخ ببابه الجمّال
فأصابه مستيقظًا ومشمّرًا ... ذا أهبة لم تلهه الآمال

* الوسيلة الرابعة: وصية الإمام

وإن شئت أخذت بوصية الإمام الشهيد حسن **البنا** حيث خطب يومًا، وكان يتحدث عن الآخرة فقال: «ليذكر كل منكم ميتًا عزيزًا عليه، وليسأل نفسه: ترى

ألن نلتقى مرة أخرى؟! وسيجد الجواب فى أعماقها: بلى سنلتقى، وذلك هو برهان الآخرة» (١)، وأنعم بها من وصية يا إمام.

والآن تنفيذًا لوصيته: أغمض عينيك وجُل بخاطرك فيما مضى وتذكر آخر ميت ودعته ممن تعرف، واسأل نفسك: أين ستلقاه بعد اليوم؟

هل هذه هى النهاية؟.. الموت.. العظام.. الرفات.. ثم الذر مع الرياح؟ كلا! قد قالها يومًا أمية بن خلف: ﴿قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ فأمر الله محمدًا ﷺ أن يجيبه: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩].

والآن بعد أن تذكرت هذا الفقيد واستحضرت صورته فى ذهنك كن على يقين أنك لن تقابله إلا فى:

(١) **الجنة**: حيث لقاء الإخوان المتحابين.. فى جنات النعيم على سرر متقابلين: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، بما قدمتم وما سابقتم حتى وصلتم، فهذا لقاء تستحث له الخطا مهرولا، وأنت فى الدنيا تبغى اللحاق بهذا الأخ الصالح تشتاق إليه وإلى لقائه مثلما اشتاق **خالد بن معدان**، كان يستقبل فراشه كل ليلة وهو فى شوق شديد إلى الرحيل، رائع الصدق فى ذكر أحبابه الذين سبقوه إلى الله يسميهم واحدًا واحدًا ويقول: «هم أصلى وفصلى، وإليهم يحن قلبى، طال شوقى إليهم، فعجل ربى قبضى إليهم» (٢)، فإذا ما استجاب الله دعاءه، وقبضه إليهم كان اللقاء المرتقب يوم القيامة فى ظل عرش الرحمن الذى أخبر بنفسه عن ذلك فقال: «حقت محبتى على المتحابين، أظلهم فى ظل العرش يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظلى» (٣).

ويتم عقد هذا اللقاء على منابر من نور صنعت لهم وحدهم دون غيرهم، يراها

---

(١) مع العارفين ص (١٨٧).
(٢) السابق ص (١٠١).
(٣) أخرجه ابن أبى الدنيا عن عبادة بن الصامت كما فى ص ج ص رقم (٤١٩٦).

النبيون والشهداء فيتمنون مثلها، وعد الله الذى قال: «المتحابون فى جلالى لهم منابر من نور، يغبطهم النبيون والشهداء»(١)، فأبشروا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [الرعد: ٣١].

(٢) النار: وبئس القرار حيث التلاوم والعتاب، ومقاساة العذاب، هنالك تعض أصابع الندم حيث لا ينفع الندم ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩].

وإذا كان عموم البلاء فى الدنيا، وكثرة المصابين يخفف وقع الآلام على النفس كما قالت الخنساء تنعى أخاها صخراً:

ولولا كثرة الباكين حولى على إخوانهم لقتلت نفسى

فقد حيل بينك وبين هذا فى الآخرة فالدار غير الدار والحال غير الحال، ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩].

(٣) أن تكون فى الجنة وهو فى النار: تنظر إليه، وأنت مشفق وجل مما تراه من حاله، وقد كشف الحجاب بينك وبينه، ولولا أن الله تعالى عرّفه لك ما عرفته لما تغير من لونه وهيئته فتناديه: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ [الأعراف: ٤٤].

وياله من تبكيت يقطع نياط القلب ويحرقه بالحسرة والندامة، فتعمل هذه الكلمات أثرًا هو أشد من شرب الصديد وصب الحميم، أما كان يكفيهم تبكيت خزنة النار وهم على عتبة جهنم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الأنعام: ١٣٠] ثم يأتيهم تبكيت المؤمنين، عذاب فوق عذاب، وظلمة فوق ظلمة، أعاذنا الله من هذا المصير.

---

(١) رواه الترمذى عن معاذ كما فى ص ج ص رقم (٤١٨٨) وتخريج المشكاة رقم (٥٠١١).

(٤) **أن تكون فى النار وصاحبك فى الجنة:** تنظر إليه، وإلى ما حازه من نعيم ورضوان ترجوه وتتوسل إليه، والكلاليب المحماة تعمل أثرها فى ظهرك تناديه ومن معه من أهل الجنة ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٠]، ولكن هيهات هيهات ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

وبعد هذا التنبيه العام وجب قراءة هذا الاستجواب الإيمانى لتُعدَّ نفسك لآخر مثله يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، يوم تعلن نتيجة السباق.

قال **عبد الرحمن بن يزيد** لرجل يعظه: يا فلان هل أنت على حال ترضى فيها الموت؟

قال: لا.

قال: فهل أجمعت لنقلة إلى حال ترضى فيها الموت؟

فقال: لا .. ما سنحت نفسى بذلك بعد.

قال: فهل بعد الموت دار فيها مستعتب؟

قال: لا.

قال: فهل تأمن الموت بغتة؟

قال: لا.

قال: ما رأيت مثل هذا الحال رضى بها عاقل.

فالعاقل هو الذى يتوب قبل الموت بأن لو قيل له: إنك تموت الساعة فإنه لا يجد عنده ذنبا يحتاج إلى التوبة منه فيسأل الإمهال من أجله.

فهم هذا **بشر بن الحارث** فكان إذا ذكر عنده الموت يقول: «ينبغى لمن يعلم أنه سيموت أن يكون بمنزلة من جمع زاده فوضعه على رحله، ولم يدع شيئًا مما يحتاج

إليه إلا وضعه عليه»[(١)] لذا قبل سفرك وجب أن تسأل نفسك: هل نسيت من زادى شيئًا؟

والآن لنا موعد مع الظلال الوارفة والجنات الناعمة التى توجد فى:

الواحة الثانية:

الخوف من الله

حمدًا لله على السلامة.. وصلنا الواحة الثانية وهى واحة كثيفة الأشجار كثيرة الخيرات فتزود منها ما استطعت.

أيها المتسابق الكريم: أعلم أن كل واحد إذا خفت منه هربت منه إلا الله فإنك إذا خفت منه هربت إليه فهو المخوف والمرجّى، فالخائف من الله هرب من ربه إلى ربه ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠].

هذا الخوف لو سلك طريقه تجار الدنيا ممن يحذرون الفقر لنجوا، قال فقيه القلوب **يحيى بن معاذ**: «مسكين ابن آدم لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة»[(٢)].

ومن آثار الخوف من الله أنه ينبت من الغفلة صحوة، ويبدّل السيئة حسنة بل وفوق ذلك يظل أثره ينمو فى قلب المتسابق حتى تلد السيئة حسنتين، قال يحيى بن معاذ: «ما من مؤمن يعمل سيئة إلا ويلحقها حسنتان خوف العقاب ورجاء العفو»[(٣)].

وإليك هذه المقابلة الصحفية مع فاطمة بنت عبد الملك زوج الخليفة الراشد **عمر بن عبد العزيز**: «كان عمر أعظم أموى ترفا وتملّكًا، غُذّى بالملك ونشأ فيه،

(١) التبصرة (١/ ٢٧٨).
(٢) الإحياء (٤/ ١٦٩).
(٣) السابق (٤/ ١٧٠).

لا يعرف إلا وهو تعصف ريحه فتوجد رائحته فى المكان الذى يمر فيه، ويمشى مشية تسمى العمرية، فكانت الجوارى يتعلمنها من حسنها وتبختره فيها» [١]، فلما ولى الخلافة وتحمل الأمانة علّمه الخوف من الله السبيل لبذل الجهد حتى يلحق بقافلة السبعين ألفاً، ولنترك الكلام لزوجته **فاطمة** تصف حاله وتقول:

«ما رأيت أحدًا أكثر صلاة ولا صيامًا منه، ولا أحدًا أشد فرقًا (خوفًا) من ربه منه، كان يصلى العشاء، ثم يجلس يبكى حتى تغلبه عيناه، ثم ينتبه فلا يزال يبكى حتى تغلبه عيناه، ولقد كان معى على الفراش فيذكر الشيء من أمر الآخرة فينتفض كما ينتفض العصفور من الماء ويجلس فأطرح عليه اللحاف» [٢].

وبلغ الخوف من عمر مبلغًا عجيبًا، فعن أبى عبيدة عقبة بن نافع أنه دخل على فاطمة بنت عبد الملك فقال: ألا تخبرينى عن عمر؟ قالت: «ما أعلم أنه اغتسل من جنابة ولا احتلام منذ استخلف» [٣].

هذا فى بيته، أما بين الناس فينقل لنا ابن عبد الحكم فى كتابه «سيرة عمر بن عبد العزيز»: قرأ عمر بن عبد العزيز بالناس ذات ليلة ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ فلما بلغ ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ خنقته العبرة فلم يستطع أن ينفذها، فرجع حتى إذا بلغها خنقته العبرة، فلم يستطع أن ينفذها فتركها وقرأ سورة غيرها» [٤].

خوف يفرض على المتسابق حقائق يبسطها له **أحمد بن حرب** فى كلمات قصار لكنهن جوامع:

من يعرف أن الجنة تزين فوقه، والنار تسعر تحته كيف ينام بينهما؟!!

ومن ميدان التذكير بالقول إلى ميدان التذكير بالضرب إن كانت النفس قد ملت سماع المواعظ واعتادت النوم والإمام يخطب، فهذا **أبو مسلم الخولانى** فقد علّق

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز ص (٣٢، ٣٣) - ابن عبد الحكم - ط دار الفضيلة .
(٢) الزهد لابن المبارك ص (٢٠٠) .
(٣) السابق ص (٢٠٢) .
(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص (٥٨) .

فى بيته سوطًا يخـوف به نفسه يقول: قومى فوالله لأزحـفن بك زحفًا حتى يكون الكلل منك لا منى، فإذا دخلت الفـترة تناول سوطه وضرب به سـاقه قائلاً: أنت أولى بالضرب من دابتى.

فضل واحة الخوف

علم الأفذاذ فضل هذه الواحة وبركة ثمارها فاسـتزادوا منها ونهلوا من معينها، فزاد حزنهم وهطلت دموعهم وسالت أودية بقَدَرها، حتى جاءهم البشير: «وعزتى لا أجمع لعبـدى أمنين ولا خوفين، إن أمننى فى الدنيا أخفته يوم أجـمع عبادى، وإن هو خافنى فى الدنيا أمنتــه يوم أجمع عبادى» (١)، وتتوالى الأعطيات الربانية والمنح الإلهية يسوقها لنا رسول الله ﷺ فيقول: «لا يلج النار أحد بكى من خشية الله حتى يعود اللبن فى الضرع» (٢).

لا يلجها بل لا يكاد يقترب من أبوابهـا حتى يصير آمن الناس غدًا، سُئل **يحيى ابن معاذ**: من آمن الناس غدًا؟ قال: أشدهم خوفًا اليوم.

ولربما كان الرجل من أهل النار فـجاءت دمعة فى مـيزانه فثقلته فـيدخل الجنة، فعن عـبد الرحـمن بن سمـرة ـ رضى الله عنه ـ قال: خرج علـينا رسول الله ﷺ ونحن فى صفَّة المدينة فـقال: «إنى رأيت البارحة عجـبًا. . . رأيت رجلاً من أمتى هوى فى النار فجاءتـه دموعه التى بكى بها فى الدنيـا من خشية الله فأخـرجته من النار» (٣).

وليس النجـاة من النار فحسب، بل الـفوز بالجنة **﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾** [النازعـات: ٤٠، ٤١]، ومن وراء هذه الجنة جنة أخرى ليـتضاعف سرورك بالتنقل من واحـدة إلى الأخرى **﴿وَلِمَنْ خَافَ**

---

(١) رواه ابن حبان وأبو نعيم عن شداد بن أوس، وحسنه الألبانى فى ص ج ص رقم (٤٢٠٨).
(٢) رواه النسائى والترمذى وأحمد واللفظ له، وحسنه الألبانى فى ص ج ص رقم (٧٦٥٥).
(٣) رواه الطبرانى والترمذى عن عبد الرحمن بن سمرة كما فى الجامع الصغير رقم (٢٦٥٢)، وقال الحافظ العراقى: سنده ضعيف، لكن قال ابن تيمية: أصول السنة تشهد له.

مقام ربه جنتان﴾ [الرحمن: ٤٦].

فعن عبد الله بن قيس أن رسول الله ﷺ قال فيهما: «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عزَّ وجَلَّ إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن» (١).

فإن كنت ممن يخاف فهناك مظنة الخير وفرصة النجاة وأمل التوفيق، وإن كنت ممن لا يخاف رددنا كلام سالم صاحب عمر بن عبد العزيز لما دخل عليه وقد ولى الخلافة، قال عمر: يا سالم إنى أخاف أن لا أنجو. قال سالم: «إن كنت تخاف فنعما، لكنى أخاف عليك أن لا تخاف» (٢).

خوف مزيف

لكن خوفًا لا يتبعه عمل، وحسرة لا تولد حركة، لهو خوف مزيف وحسرة كاذبة وحجة على صاحبها لا حجة له.

لأن «من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل» (٣) أدلج: سار أول الليل، وهى كناية عن التشمير فى الطاعة، فهو خوف يدفعك إلى ظمأ النهار ومناجاة الأسحار وإتباع ذلك كله بالاستغفار، بهذا تلحق بالركب وإلا مكانك لن تبرحه.

يا آمنا مع قبح الفعل منه، هل ... أتاك توقيع أمن أنت تملكه؟
جمعت شيئين أمنا واتباع هوى ... هذا وإحداهما فى المرء تهلكه
والمحسنون على درب المخاوف قد ... ساروا وذلك درب لست تسلكه
فرطت فى الزرع وقت البذر من سفه ... فكيف عند حصاد الناس تدركه

لكن ترى مم كان هذا الخوف كله؟

نجيبك فنقول: من لم يشاركهم هواهم، ولم يذق حلاوة نجواهم، ولم يدر ما

---

(١) رواه الشيخان وابن ماجه عن أبى هريرة، وحسنه الألبانى فى ص ج ص رقم (٧٦٥٥).
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز ص (١٢٦) - ابن الجوزى، - دار ابن خلدون.
(٣) رواه الترمذى والحاكم فى المستدرك عن أبى هريرة كما فى ص ج ص رقم (٦٠٩٨).

الذى أبكاهم، ومن لم يشاهد جمال يوسف لم يدر ما الذى آلم قلب يعقوب.

فاعلم ـ حفظك الله ـ أن هذا خوف من:

(١) سوء الخاتمة:

عن سهل بن سعد عن النبى ﷺ قال: «إن العبد ليعمل عمل أهل النار وإنه من أهل الجنة، ويعمل عمل أهل الجنة وإنه من أهل النار، وإنما الأعمال بالخواتيم» (١) ولذلك كان أكثر دعاء النبى ﷺ: «يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك» (٢).

وتظل هذه الصفة عالقة به ﷺ فى كل وقت وحين حتى فى يمينه فعن ابن عمر قال: كانت يمين النبى ﷺ: «لا ومقلب القلوب» (٣)، فقيل له فى ذلك؟ فقال: «إنه ليس آدمى إلا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله، فمن شاء أقام، ومن شاء أزاغ» (٤).

وهكذا كان النبيون من قبل فهذا خليل الرحمن إبراهيم يدعو: ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، ويوسف يناجى ربه: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ [يوسف: ١٠١]، فإذا كان هذا حال رسل الله وهم أكرم الخلق على الله وأعظمهم درجة، فكيف بمن لا يساوون فى جوارهم ذرة من تراب، أليسوا أحوج إلى هذا الخوف؟!

كم من متسلق جبل لما اقترب من بلوغ قمته زلت قدمه فهوى إلى الهاوية، وكم من راكب بحر لمح بر الأمان من بعيد فلما أوشك على الوصول لعب به الموج فغرق، وما منا من أحد إلا وهو واقع تحت هذا الخطر، فرُب قلوب خاشعة وأعين دامعة وُقِّع فى سجل أعمالها: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾، ودُوِّن فى

---

(١) رواه الشيخان عن سهل بن سعد كما فى ص ج ص رقم (١٦٢٠).
(٢) رواه الترمذى والحاكم عن أنس كما فى ص ج ص رقم (٧٨٦٤).
(٣) رواه الشيخان وأبو داود كما فى ص ج ص رقم (٤٨٠٦).
(٤) رواه الترمذى عن أم سلمة كما فى ص ج ص رقم (٤٦٧٧).

اللوح المحفوظ فى حقها : ﴿ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ [الأعراف : ٤٠].

وإليك خبر من صلى ركيعات فى جوف الليل، وصام يومًا أو يومين ثم ظن بذلك أنه حجز مقعدًا فى الجنان مع الحور الحسان:

«يروى أنه كان بمصر رجل ملتزم مسجدًا للآذان والصلاة، وعليه بهاء العبادة وأنوار الطاعة، فرقى يومًا المنارة على عادته للأذان، وكان تحت المنارة دار لنصرانى ذمى، فاطلع فيها فرأى ابنة صاحب الدار، فافتتن بها وترك الأذان، ونزل إليها ودخل الدار فقالت له: ما شأنك؟ ما تريد؟ قال: أنت أريد. قالت: لماذا؟ قال لها: قد سلبت لبى وأخذت بمجامع قلبى، قالت: لا أجيبك إلى ريبة، قال لها: أتزوجك، قالت له: أنت مسلم وأنا نصرانية، وأبى لا يزوجنى منك، قال لها: أتنصر. قالت: إن فعلت أفعل، فتنصر ليتزوجها، وأقام معهم فى الدار، فلما كان فى أثناء ذلك اليوم رقى إلى سطح كان فى الدار فسقط منه ومات، فلا هو بدينه حظى ولا هو بها ظفر، فنعوذ بالله ثم نعوذ بالله من سوء الخاتمة»[١].

ولهذا أوصانا النبى ﷺ : « لا تعجبوا بعمل عامل ، حتى تنظروا بم يختم له»[٢].

ويستلّ **ابن القيم** قبسا من نور النبوة فيصوغه مثلا يجلو به الظلمة ويرفع به الحجب عن الأبصار: إن الرجل ليعمل بطاعة الله ستين سنة فإذا كان عند الموت جار فى الوصية، فيختم له بسوء عمله فيدخل النار، ثم يرص حروف نظريته قائلاً:

«العمر بآخره والعمل بخاتمته»[٣]

فإن استعصى عليك الفهم، وطلبت مزيد شرح، واستفاضة بلاغ قال لك:

---

(١) التذكرة ص (١٤٧).

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير عن أبى أمامة كما فى ص ج ص رقم (٧٢٤٣).

(٣) الفوائد ص (٨٣).

«من أحدث قبل السلام بطل ما مضى من صلاته، ومن أفرط قبل غروب الشمس ذهب صيامه ضائعًا، ومن أساء فى آخر عمره، لقى الله بذلك الوجه» (١).

هكـــذا خــاف الســلف

كان **سفيان الثورى** ـ رحمه الله ـ يشتد قلقـه من خاتمته، وما سبق من علم الله تعالى، فيبكى ويجزع، فقيل له: «يا أبـا عبد الله عليك بالرجاء فإن عفو الله أعظم من ذنوبك، فقـال: أو على ذنوبى أبكى؟ لو علمت أنى أموت على التوحـيد لم أبال أن ألقى الله تعالى بـأمثال الجـبال من الخطايا» (٢)، وقال ذات مـرة: «ما أمن أحد على دينه إلا سلبه» (٣).

فإذا لم يسلب التوحيـد، ودخل قبره موحدًا فيا بشـراه، بشره بذلك أحمد بن أبى الحوارى فقال: «إذا دخلت القبر ومعك الإسلام فأبشر» (٤).

قلوب الأبرار معلقة بالأعمال، أما قلوب المقـربين فمعلقة بالخواتيم. قال بعض السلف: «لو كانت الشهادة على بـاب الدار والموت على الإسلام عند باب الحجرة لاخترت الموت على الشهادة، فقيل له: ولم؟ قال: لأنى لا أدرى ما يعرض لقلبى من المشاهدة فيما بين باب الحجرة وباب الدار فيغير التوحيد» (٥).

(٢) الخوف من عاقبة المعصية :

فالمعـصيـة الواحدة قد يغـفرها الله لك كـما يملك أن يعـذبك بها فـاسمع: «يا مغـرورا بالأمانى: لعن إبليس وأُهبط من منزل العز بتـرك سجدة واحدة أُمـر بها، وأُخرج آدم من الجنة بلقمة تناولها، وحُجِبَ القاتل عنها (أى: الجنة) بعد أن رآها عيانا بملء كف من دم، وأُمر بقتل الزانى أشنع القـتلات بإيلاج قدر الأنملة فيما لا يحل له، وأمر بإيساع الظهر سياطا (أى: بالجد) بكلمة قذف أو بقطرة من مسكر، وأبان عضوًا من أعـضائه بثلاثة دراهم (٦)، فلا تأمنه أن يحبســك فى النار بمعصية

(١) السابق ص (٨٣، ٨٤). (٢) قوت القلوب ص (٤٧١).
(٣) منهاج العابدين ص (٢٦٠). (٤) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٩٢).
(٥) قوت القلوب ص (٤٧١، ٤٧٢). (٦) أى أن الله أمر بقطع يد السارق بثلاثة دراهم يسرقها.

واحدة من معاصيه ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ [الشمس : ١٥].

دخلت امرأة النار فى هرة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقى لها بالا يهوى بها فى النار أبعد ما بين المشرق والمغرب» (١).

تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجى — درج الجنان ونيل فوز العابد
ونسيت أن الله أخرج آدمًا — منها إلى الدنيا بذنب واحد

وإليك هذا الخبر الذى يبعثه لك أبو هريرة ليبعث - لا الخوف فحسب - بل الرعب فى قلبك فتتوقى أشواكًا كانت تعلق بأثوابك من ذى قبل دون أن تلقى لها بالاً، وآن لك بعد قراءة هذه السطور أن تنتبه لها.

عن أبى هريرة: فلما انصرفنا مع رسول الله ﷺ إلى وادى القرى ونزلنا بها أصيلاً مع مغرب الشمس، ومع رسول الله غلام له أهداه له رفاعة بن زيد، فوالله إنه ليضع رحل رسول الله إذ أتاه سهم غرب (طائش) فأصابه فقتله فقلنا: هنيئا له الجنة. قال: «كلا والذى نفسى بيده، إن الشملة التى أصابها يوم خيبر من الغنائم لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه نارًا» (٢).

سبحان الله.. هذا رجل رآه الناس من أهل الجنة، وأصبح من خدم رسول الله يراه حيث يقوم ويصوم ويعظ الناس، يصب له ماء الوضوء، ويتبرك بآثار طهوره، ولكن ذلك كله لم يشفع له ومعصية واحدة صغيرة أدت به إلى النار، ولو كانت شملة من غنيمة لا يؤبه لها.

سمع رجل من أصحاب رسول الله هذا الحديث ورأى هذه الواقعة فقال: أصبت شراكين لنعلين لى (أى: من الغنائم)، فقال له النبى ﷺ: يُقدّ (يقطع) لك مثلهما فى النار، ولما كلف الرسول ﷺ أحد أصحابه بتقسيم الغنائم ولقى من التعب والحر الشديد ما جعله يعصب رأسه بعصابة من الغنائم يتقى بها الشمس، قال النبى ﷺ له: عصابة من النار عصبت بها رأسك، وتوفى رجل من أشجع

(١) الفوائد ص (٨٣).
(٢) رواه الشيخان والنسائى وأبو داود عن أبى هريرة كما فى ص ج ص رقم (٦٩٤٢).

فلم يصل عليه وقال: إن صاحبكم غل فى سبيل الله، فوجد فى متاعه خرز لا يساوى درهمين.

كلمات تقشعر لها الأبدان، وتهلع لها الأفئدة، ولهذا نوصيك ونقول: احذر معاصيك وتذكر أن أول الغيث قطرة، وإنما السيل اجتماع النقط، وما الكف إلا إصبع وإصبع، ومعظم النار من مستصغر الشرر، وإليك هذه الموعظة البليغة التى نطق بها أبو الفرج ابن الجوزى:

«غاب الهدهد عن سليمان ساعة فتواعده، فيا غائبًا عنا طول عمره.. أما تحذر غضبنا، خالف موسى الخضر فى طريق الصحبة ثلاث مرات، فحل عقد الوصل بكف ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾، أما تخاف يا من لم يف لنا قط أن نقول فى بعض زلاتك ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾» (١).

(٣) الخوف من عدم القبول:

فعن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: «سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، قالت عائشة: الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: لا يا ابنة الصديق ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يتقبل منهم، أولئك الذين يسارعون فى الخيرات» (٢).

وفارق كبير بين من يسارعون فى الخيرات ومن يسارعون فى الآثام، هو ذات الفارق بين النور والظلمة.. بين السماء والأرض.. بين الحياة والموت، نطق بذلك إمام من أئمة الهدى هو **الحسن البصرى** وهو يصف حال المؤمنين فقال: «عملوا والله بالطاعات، واجتهدوا فيها، وخافوا أن ترد عليهم، إن المؤمن جمع إحسانا وخشية، والمنافق جمع إساءة وأمنا» (٣).

---

(١) المدهش ص (٤٩٠، ٤٩١).

(٢) رواه الترمذى وابن ماجه عن عائشة كما فى السلسلة الصحيحة رقم (١٦٢).

(٣) تهذيب مدارج السالكين ص (٢٦٩).

أما غيره فكأنه أخذ صكًا من الله بمغفرة ذنبه وحجز مقعده فى الفراديس بمجرد أدائه ركعات ينقرها نقر الديكة بلا خشوع وأوراد يهذرم بها بلا روح.

قال أبو أيوب: قال لى أبو مالك يومًا: يا أبا أيوب لئن لم تأت الآخرة المؤمن بالسرور فقد اجتمع عليه الأمران: هم الدنيا وشقاء الآخرة، قلت: بأبى أنت وأمى، وكيف لا تأتيه الآخرة وهو ينصب لله فى الدنيا ويدأب، قال: يا أبا أيوب فكيف بالقبول؟ وكيف بالسلامة؟ ثم قال: كم من رجل يرى أنه قد أصلح شأنه، قد أصلح قربانه، قد أصلح همته، قد أصلح عمله يجمع ذلك يوم القيامة ثم يضرب به وجهه ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

فمن وجد الطاعة فلا يغتر، فربما فتح لك باب طاعته، وأنهضك إلى خدمته، ولم يفتح لك باب القبول.

سئل **حاتم الأصم**: كيف تصلى؟ قال: «أقوم بالأمر، وأمشى بالخير، وأُكَبِّر بالتعظيم، وأقرأ بالترتيل والتفكر، وأركع بالخشوع، وأسجد بالتواضع، وأجلس للتشهد بالتمام، وأسلم بالسبل والسنة، وأسلمها بالإخلاص إلى الله عَزَّ وجَلَّ، وأرجع على نفسى بالخوف.. أخاف ألا يقبل منى شىء» (١).

وليس أمر النجاة معلقًا بكثرة الطاعات، فإن أكبر طاعة إذا أصابتها آفة العجب والرياء صارت لا قيمة لها مصداق قول النبى ﷺ: «رب قائم حظه من قيامه السهر، ورب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش» (٢).

وإن أقل طاعة إذا سلمت من هذه الآفات أعطى الله صاحبها من الأجر والثواب ما لا حد له. سُئل **النخعى** عن عمل كذا وكذا ما ثوابه؟ فقال: «إذا قبل لا يحصى ثوابه» (٣).

---

(١) حلية الأولياء (٨/ ٧٤، ٧٥).

(٢) رواه الطبرانى عن ابن عمر وأحمد والحاكم والبيهقى عن أبى هريرة كما فى ص ج ص رقم (٣٤٨٤).

(٣) منهاج العابدين ص (٢٣٦).

والمتسابق الفذ لا يتعب جسده فى غير فائدة، فيغتر بالعدد والكثرة دون أن ينظر إلى اللب والجودة، وشعاره الذى يرفعه: جوهرة واحدة خير من ألف خرزة.

(٤) الخوف من الاستدراج :

قال النبى ﷺ : «إذا رأيت الله تعالى يعطى العبد من الدنيا ما يحب وهو مقيم على معاصية فإنما ذلك منه استدراج» (١) .

فإذا أنعم الله عليك بنعمة من نعمه كوفرة مال أو كثرة عيال أو ارتفاع مكانة أو عافية بدن واجتمع مع هذه النعمة ارتكاب كبائر أو إصرار على صغائر كنت فى عداد المستدرجين بنعم الله عليهم وهم لا يشعرون، كل نعمة لا تقرب من الله فهى نقمة، وكل عطية تصرف عنه فهى بلية .

وسنة الاستدراج سنة إلهية حذرنا الله من أن نغفل عنها فقال عز وجل : ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٥، ٥٦] وأمثال هؤلاء ظنوا الامتحان نتيجة والبلاء نعمة والإمهال رضا فعاب الله عليهم فى كتابه وقال : ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴾ [الفجر : ١٥] ، وما درى المسكين أن زواج النعمة من الإصرار على الذنب ينجب جنين الاستدراج الذى يكبر وينمو مورثاً الخزى والبوار والهلاك والخسران، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام : ٤٤] .

أما المؤمنون فقد وجلت قلوبهم لما سمعوا تهديد: **﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾** ، وتجافت جنوبهم عن المضاجع لما بلغهم وعيد : **﴿ وأملى لهم ﴾** ، وعلموا أن الوصول إلى لآلىء الفردوس مُحال دون الغوص فى بحار الخوف، وأن الطير فى الجنة لا يخرّ بين أيديهم مشوياً دون أن يُصاد بسهم المجاهدة، ونبال المكابدة التى يطلقونها فى حياتهم قبل السفر، علموا هذا فكان حالهم فى الدنيا :

---

(١) رواه أحمد والطبرانى، والبيهقى فى الشعب عن عقبة بن عامر كما فى ص ج ص رقم (٥٦١) والسلسلة الصحيحة رقم (٤١٤) .

إذا مـا الليل أظـلم كـابدوه   فيسـفر عنهم وهـم ركـوع
أطـار الخـوف نومهم فقـاموا   وأهل الأمـن فى الدنيا هجوع
لهم تحـت الظلام وهـم سجود   أنـين منه تنفـرج الضـلوع
وخرسٌ فى النهار لطول صمت   عـليهم مـن سكينتهم خشوع

ومن لم يخف هذا الخوف خيف عليه من نقصـان العمل، ورقة الدين، وفساد العقل، يقسم على هذا الحسن البصـرى فيقول : «والله ما أحد من الناس بُسط له فى أمر من أمـور دنياه، فلم يخف أن يـكون ذلك مكراً به، واستـدراجاً له، إلا نقص ذلك من عمله ودينه وعقله» (١) .

والآن احزم أمتعتك واستعد للإقلاع حتى تهبط فى مطار:

الواحة الثالثة:

حسرة أهل الجنة

عنوان عجيب، فكيف يتحسر من فاز؟ أليس قد نال مراده؟ وبلغ ما أمل، لكن النبى ﷺ قـال: «ليس يتحـسر أهل الجنة على شىء إلا على سـاعة مـرت بهم لم يذكروا الله عَزَّ وجَلَّ فيها» (٢).

عجـيب أمركم أهل الجـنان: تتحسـرون لا لأنكم عصـيتم الله فى الدنـيا، بل لأنكم تركتم فيها ساعة فلم تملأ بذكر الله، بينما يبكى غيركم لفوات لذته، ويتحسر لفراق شهواته، فشتان بين الفريقين.

ويجمع **الأوزاعى** تلاميـذه ليشرح لهم حـديث رسول الله ﷺ فيـقول: «ليس ساعة من ساعات الدنيا إلا وهى معروضة على العبد يوم القيامة يومًا يومًا، وساعة ساعة، ولا تمر به ساعة لم يذكر الله فيهـا إلا انقطعت نفسه عليها حسرات، فكيف

(١) الحسن البصرى ص ٣٨ - ابن الجوزى - ط مكتبة الخانجى .
(٢) رواه الطبرانى فى الكبير والبيهقى فى الشعب عن معاذ كما فى ص ج ص رقم (٥٣٢٢) .

إذا مرت به ساعة مع ساعة، ويوم مع يوم، وليلة مع ليلة؟!!» (١).

مرّ بهذه الواحة عشاق الجنان وخاطبو الحور وهم كثير، لكننا توفيرا لوقتك سنقف مع عشاق ثلاثة فحسب.

أيها العاشق مهلاً إننا ... مهرنا غال لمن يخطبنا

جسد مضنى وروح فى العنا ... وجفون لا تذوق الوسنا

وفؤاد ليس فيه غيرنا ... فإذا ما شئت أد الثمنا

* العاشق الأول:

كان عبد الله بن عمر يصلى على الجنازة ثم ينصرف فلما مر بواحتنا فلما سمع حديث النبى ﷺ: «من تبع جنازة مسلم إيمانًا واحتسابًا، وكان معها حتى يصلى عليها ويفرغ من دفنها، فإنه يرجع من الأجر بقيراطين، كل قيراط مثل أحد، ومن صلى عليها ثم رجع قبل أن تدفن، فإنه يرجع بقيراط من الأجر» (٢)، فلما سمعه تعاظمه وأرسل إلى عائشة رسولاً يسألها عن قول أبى هريرة راوى الحديث، ثم يرجع إليه فيخبره ما قالت، وأخذ ابن عمر قبضة من حصى المسجد يقلبها فى يده حتى يرجع الرسول إليه، فقال: قالت عائشة: صدق أبو هريرة، فضرب ابن عمر بالحصى الذى كان فى يده الأرض وهو يقول: لقد فرّطنا فى قراريط كثيرة، يتحسر على طاعة ضيّعها تدنو به من الجنة، وغيره يتحسر على معصية لم ينلها تدنو به من النار!!

* العاشق الثانى:

هو أحد الذين قال تعالى عنهم: ﴿وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢].

---

(١) مع العارفين ص (١٩).

(٢) رواه البخارى والنسائى عن أبى هريرة كما فى ص ج ص رقم (٦٠١٤).

هذا والله بكاء الرجال: بكوا على فقد رواحل يحملون عليها إلى الموت، فى مواطن تراق فيها الدماء وتتطاير فيها الأشلاء، وتقطف فيها رؤوس الرجال، أما من يبكى فوات حظه من الدنيا، وكانت حسرته على فقد شهواته، فذلك بكاء الأطفال.

سهر العيون لغير وجهك باطل   وبكاؤهن لغير فقدك ضائع

* **العاشق الثالث:**

يرى عمله يقصر به عن الجنة ما لم يطعّم بظمأ الهواجر، وقيام ليالى الشتاء فلما حضرته المنية بكى حسرة إذ حيل بينه وبين راحته وراحته فى الظمأ والقيام!!

ذلك هو **عامر بن عبد قيس** لما سئل عند احتضاره؟ ما يبكيك؟ قال: «ما أبكى جزعًا من الموت، ولا حرصًا على الدنيا، ولكن أبكى على ظمأ الهواجر، وعلى قيام ليالى الشتاء» (١).

الواحة الرابعة:

خمسية الصحابة

هذه واحة مباركة تنبت خمسة أنواع من الزاد لا نوعًا واحدًا، وكفى بها أنها الواحة التى أوى إليها صحابة رسول الله ﷺ خير قرون هذه الأمة، فلنشرب من نفس المعين، ولننهل من نفس ما نهلوا منه.

هذه الأنواع الخمسة نقلها لنا **الإمام الأوزاعى** وهى: «لزوم الجماعة، واتباع السنة، وعمارة المسجد، وتلاوة القرآن، والجهاد فى سبيل الله» (٢).

---

(١) الزهد لابن المبارك ص (٦٠).

(٢) بهجة المجالس (٣/ ١٤٠) - القرطبى.

أ ـ لزوم الجماعة :

هذا هو زادهم الأول، واقرأ معنا هذا الحديث العجيب المعجز:

عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: «صلّى رسول الله ﷺ الصبح ثم أقبل على الناس فقال: . . . ، وبينما رجل فى غنمه إذ عدا الذئب فذهب منها بشاة فطلب حتى كأنه استنقذها منه فقال له الذئب هذا: استنقذتها منى فمن لها يوم السبع يوم ليس لها غيرى؟ فقال الناس: سبحان الله ذئب يتكلم؟ قال: فإنى أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر وما هما ثمَّ» [(١)] (أى: لم يكونا حاضرين ومع هذا صدَّقا وهذا دلالة على قوة الإيمان).

أيا المتسابقون: ليست هذه الواقعة التى ذكرها الحديث على سبيل الرمز، كلا إنما هى (واقع يتكلم) نقله لنا (وحى) على لسان رسول الله ﷺ، ذئب يتكلم بقدر الله مع الإنسان وبلغته ليتعلم الإنسان حقيقة قيمة يريده الله أن يعلمها، هذه الحقيقة هى: «إنما يأخذ الذئب من الغنم الشاة القاصية» [(٢)].

الذئب هو الشيطان، والغنم هم البشر، فاقرأ بقلبك لا بعينك ما وراء الأحرف والكلمات ثم امض وسابق وكن فى المقدمة لا فى الساقة.

لكن ملازمة الصالحين يتجاوز أمر النجاة إلى أمر التربّع وسط الجنة فيخبرنا النبى ﷺ: «من أراد بحبوحة الجنة (أوسطها) فليلزم الجماعة»، ويؤكد لنا فيقول: «عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد»[(٣)] فإن استطاع الشيطان أن يغوى الواحد فهو من الاثنين أبعد وأعجز، فكيف ومتسابقنا ضمن رفقة صالحة تذكره إذا نسى وتعينه إذا ذكر، ولهذا كان

---

(١) رواه الشيخان والنسائي عن أبى هريرة كما فى ص ج ص رقم (٢٨٦٨) والإرواء رقم (٢٤٧) .

(٢) رواه أبو داود وأحمد والنسائى والحاكم عن أبى الدرداء، وحسنه الألبانى فى ص ج ص رقم (٥٥٧٧) .

(٣) رواه أحمد فى المسند بتحقيق أحمد محمد شاكر (١/ ٢٣٠، ٢٣١) ، وقال: إسناده صحيح .

(الواحد شيطان، والاثنان شيطانان، والثلاثة ركب) [1]، ولهذا قيل: كدر الجماعة خير من صفو الفرد.

الرفيق قبل الطريق

ولأن التجريب قبل التدقيق كان أحمد بن حنبل يدقق فى اختيار من يدنيه، وعرف عنه ذلك حتى قال عنه الشاعر:

ويحسن فى ذات الإله إذا رأى مضيما لأهل الحق لا يسلم البلا

وإخوانه الأدنون كل موفق بصير يأمر الله يسمو إلى العلا

تأمل قوله:

(١) **بصير بأمر الله**: يجده الله حيث أمره، ويفتقده حيث نهاه، إن تكلم فبالله، وإن سكت فبالله، وإن تحرك فبالله، وإن أحب فبالله، وإن عادى فبالله، وإن قدم خطوة، أو أخرها فبالله.

(٢) **يسمو إلى العلا**: فيذكرك بالله إن نسيت، وبالموت إن غفلت عنه، وبحقيقة الدنيا إن انشغلت بها، وبالصف الأول إن افتقدك فيه، وبسنة النبى ﷺ إن بعدت عنها، وبورد القرآن إن هجرته، وباستغفار الأسحار إن نمت عنه، وبظمأ الهواجر إن تركته.

فليكن إخوانك من نفس النوع إخوان خير، ولا تُخدعنّ فيهم فلا يكونون سوى أصحاب دنيا كما خُدع فيهم **أبو مسلم الخولانى**!!

دخل أبو مسلم الخولانى ـ رحمه الله ـ مسجدًا فرأى فيه حلقة ظنهم فى ذكر، فجلس إليهم فإذا هم يتحدثون فى الدنيا فقال:

«سبحان الله! هل تدرون يا هؤلاء ما مثلى ومثلكم؟ كمثل رجل أصابه مطر

---

(١) رواه الحاكم عن أبى هريرة كما فى السلسلة الصحيحة رقم (٦٢).

غزير وابل فالتفت فإذا هو بمصراعين عظيمين فقال: لو دخلت هذا البيت حتى يذهب عنى أذى هذا المطر، فدخل فإذا بيت لا سقف له، جلست إليكم وأنا أرجو أن تكونوا على خير: على ذكر، فإذا أنتم أصحاب دنيا» (١).

والجماعة التى نعنيها جماعة «اجلس بنا نؤمن ساعة» ورفقة «ألن قلبى بذكر الله»، فإن لم تزل قسوة قلبك بصحبتهم قلنا لك:

«لا تضجر، فللدوام أثر، جالس الباكين يتعدّ إليك حزنهم، فتأثير الصحبة لا يخفى، أما ترى دود البقل أخضر!!» (٢).

فعليك بحبهم والتودد إليهم تحشر معهم، وإلا فالتهديد حاضر يرسله لك عبد الله بن مسعود: «لو أن رجلاً قام بين الركن والمقام يعبد الله سبعين عامًا لبعثه الله مع من يحب» (٣)، يقطع الطريق بذلك على من يستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير ويؤثر حب الفجار على حب الأبرار.

ويكمل الحسن تهديد ابن مسعود فيقول: «لا يغرنك قول: يحشر المرء مع من أحب، فإن اليهود والنصارى يحبون أنبياءهم وليسوا معهم» (٤).

هذا الكلب فماذا عنك؟!!

وقد نقل القرطبى ـ رحمه الله ـ كلامًا لأحد وعاظ مصر واسمه أبو الفضل الجوهرى قاله على منبر وعظ عام ٤٦٩ هـ حيث نوّه كيف نال كلب أصحاب الكهف شرف ذكره فى القرآن فقال: «إن من أحب أهل الخير نال من بركتهم، كلب أحب أهل الفضل وصحبهم فذكره الله فى محكم تنزيله، ثم قال: إذا كان بعض الكلاب قد نال هذه الدرجة العليا بصحبة ومخالطة الصالحين والأولياء،

---

(١) نحو المعالى ص (١٢) - محمد أحمد الراشد - ط دار البشير .
(٢) المدهش ص (١٩٦) .
(٣) الإحياء (٢/ ١٧٥) .
(٤) السابق (٢/ ١٧٥) .

حتى أخبر الله تعالى بذلك فى كتابه جل وعلا، فما ظنك بالمؤمنين الموحدين المخالطين المحبين للأولياء والصالحين»[١].

فإذا صحبتهم حسبت معهم، وفزت بسبب مرافقتهم لأن مما جاء فى وصفهم: «هم القوم لا يشقى بهم جليسهم»[٢]، ولأن فى صحبتهم رؤية النفس على حقيقتها بلا تزيين أو خداع، فالمؤمن مرآة أخيه، وفى ذلك إدراك علل النفس وآفاتها، ومن ثم استكمال نقائصها وتهذيبها وتقويمها وتسديدها، قال **مطرف بن الشخير**: «لأنا أحوج إلى الجماعة من الأرملة، إنى إذا كنت فى الجماعة عرفت ذنبى»[٣].

رأيت الطين فى الحمّام يومًا	بكف الحِبّ أثرّ ثم نسّم
فقلت له: أمسك أم عبير؟	لقد صيّرتنى بالحِبّ مغرم
أجاب الطين: إنى كنت تربًا	صحبت الورد صيّرنى مُكرّم
ألفت أكابرًا وازددت علمًا	كذا من عاشر العلماء يكرم

سر مع القافلة

وكن معهم حيث كانوا، ولا يفارقن خيالهم خيالك فهم خير لك من الدنيا وما فيها، والسر فى هذا يخبرنا به **بلال بن سعد** فيقول: أخ لك كلما لقيك ذكرك بنصيبك من الله، وأخبرك بعيب فيك أحب إليك وخير لك من أخ كلما لقيك وضع فى كفك ديناراً.

ولهذه الخيرية سبب ثان يبوح لنا به **الحسن البصرى** حيث يقول:

(١) تفسير القرطبى ص (٣٩٨٨) - ط دار الشعب.
(٢) رواه الشيخان عن أبى هريرة كما فى اللؤلؤ والمرجان رقم (١٧٢٢).
(٣) الزهد لأحمد بن حنبل ص (٣٠٠) - ط دار الريان.

«إخواننا أحب إلينا من أهلينا لأن إخواننا يذكروننا بالآخرة، وأهلونا يذكروننا بالدنيا» (١).

وسبب ثالث نطق به **محمد بن يوسف** فقال: «وأين مثل الأخ الصالح؟ أهلك يقسمون ميراثك، وهو قد تفرد بجدثك (قبرك) يدعو لك وأنت بين أطباق الأرض»(٢).

وبين إخوان الآخرة يكون التنافس ويحتدم السباق، أما إخوان الدنيا فيقول عنهم **الحسن**: «من نافسك في دينك فنافسه، ومن نافسك في دنياه فألقها في نحره» (٣).

ولأن قافلة عكاشة محدودة العدد، فتأتي الأخبار عن أفذاذ كلهم يريدون أن يحجزوا أماكنهم في القافلة السائرة، يقول **الشيخ شمس الدين محمد بن عثمان التركستاني**: ما بلغني عن أحد من الناس أنه تعبّد عبادة إلا تعبّدت نظيرها، وزدت عليه.

فحذار أن تستبدل الطالحين بالصالحين، والبطالين بالقوّامين وتذكر:

يد الله مع الجماعة، ومن شذّ شذّ إلى النار

شذّ: أي فارق الصالحين، وتفرد حينا فاحتوشته شياطين الإنس والجن فأغروه وزينوا له الهوى، معصية تلو معصية، وظلمة فوق ظلمة إذا أخرج يده لم يكد يراها حتى يسقط في جهنم، هكذا في متوالية تراكمية تؤكد صحتها الحوادث والأيام، وتشهد بسلامتها مشاهدة من استزلهم الشيطان، وباض في قلوبهم وفرّخ.

---

(١) الزهد لابن المبارك ص (١٠٦).
(٢) روضة الزاهدين ص (٩١) - عبد الملك على الكليب - ط مكتبة القدس.
(٣) مكاشفة القلوب ص (١٢٦) - أبو حامد الغزالي - ط مكتبة التوفيقية.

والآن افتح قلبك لتملأه من الزاد الثانى فى هذه الواحة وهو:

ب ـ اتباع السنة :

السنة كما قال **الإمام مالك** رحمه الله: مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق، التخلف عنها أى عدم العمل بها واستبدال الذى هو أدنى بالذى هو خير، فإنه يكون فريسة سهلة تسقط فى شراك الشيطان، ولهذا قال **أبو بكر الصديق** ـ رضى الله عنه ـ: «ولست تاركًا شيئًا كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملت به، وإنّى أخشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ» (١).

قال **الحسن البصرى**: «السنة ـ والله الذى لا إله إلا هو ـ بين الغالى والجافى، فاصبروا عليها ـ رحمكم الله ـ فإن أهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضى، وهم أقل النَّاس فيما بقى، الذين لم يذهبوا مع أهل الأتراف فى أترافهم، ولا مع أهل البدع فى بدعهم، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم فكذلك إن شاء الله تكونوا» (٢).

والرسول ﷺ يرغبنا فى اتباع السنة ويحذرنا من الأهواء والزيغ فى حديث رائع التصوير: عن معاوية ـ رضى الله عنه ـ قال: قام فينا رسول الله ﷺ فقال: «ألا إن من كان قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين: ثنتان وسبعون فى النار، وواحدة فى الجنة، وهى الجماعة، وإنه سيخرج فى أمتى أقوام تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه، لا يبقى منه عروق ولا مفصل إلا دخله» (٣).

والكلب داء يصيب الإنسان إذا عضه كلب مصاب بهذا الداء، فلا يبقى فى

---

(١) رواه الشيخان عن أبى بكر الصديق كما فى اللؤلؤ والمرجان رقم (١١٥٠) .

(٢) إغاثة اللهفان لابن القيم (١/ ٧٠) .

(٣) رواه أحمد وأبو داود كما فى صحيح الترغيب والترهيب رقم (٤٩) .

الجسم جزء ولا مفصل ولا غيرهما إلا دخله ذلك الداء، وهو جريان لا يقبل العلاج، ولا ينفع فيه الدواء، وكذلك صاحب الأهواء إذا دخلت قلبه وأشرب حبها لا تعمل فيه الموعظة ولا تؤثر فيه النصيحة.

وفى زماننا هذا غابت السنة وغلب الهوى، والنتيجة أن تبدلت المفاهيم والقيم:

صار المعروف منكراً والمنكر معروفًا.. انقلب العدو صديقًا وعاد الصديق عدوًا.. أُمر بالرذيلة وحوربت الفضيلة.. طمست نجوم الهدى وبرز عشاق الهوى.. حل التخشع محل الخشوع، والخيانة محل الأمانة، والمراقص محل المساجد، والخليلات محل الزوجات، والهدم محل البناء، وبدلاً من الزحف لتحرير المقدسات كان الزحف لإحراز الميداليات، وبدلاً من حشد الأمة لمواجهة الأعداء كان حشدها لشهود حفلات الرقص والغناء، وأصبح حالنا كما وصفنا أبو الدرداء: «لو خرج رسول الله عليكم ما عرف شيئًا مما كان عليه هو وأصحابه إلا الصلاة، قال الأوزاعى: فكيف لو كان اليوم؟ قال عيسى بن يونس: فكيف لو أدرك الأوزاعى هذا الزمان؟» (١).

ونحن بدرونا نقول : فكيف لو أدرك عيسى بن يونس هذا الزمان ؟

فالتزم سنة نبيك وإلا لست منه وليس منك، أليس القائل: «فمن رغب عن سنتى فليس منى» (٢)، لست منه فى الدنيا ولا فى الآخرة فتطرد عن حوضه، ومتبعو سنته ينهلون من بين يديه شربة هنيئة مريئة لا يظمأون بعدها أبدًا.

هذا ما قاله النبى ﷺ لأنس بن مالك: «ليردن علىّ ناس من أصحابى الحوض، حتى إذا رأيتهم عرفتهم اختلجوا دونى، فأقول: يا رب أصحابى أصحابى، فيقال لى: إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك» (٣).

---

(١) الاعتصام ص (٢٠) - أبو إسحاق الشاطبى - ط دار التحرير للطبع والنشر.
(٢) رواه الشيخان والنسائى وابن ماجه عن أنس.
(٣) رواه الشيخان عن حذيفة وأحمد عن أنس كما فى ص ج ص رقم (٥٢٤٤).

واحذر أن تحـقق وأنت لا تشعـر قولة الأوزاعى: «يأتى على النـاس زمان أقل شيء فى ذلك الزمان أخ مؤنس، أو درهم من حلال، أو عمل فى سنة» (١).

جـ ـ عمارة المسجد

إنما جماع الخير فى ارتياد المسجد ولقد أحصاها **الحسن بن على** فقال: «من أدام الاختلاف إلى المسجد أصـاب ثمانى خصال: آية محكمة، وأخا مـستفادًا، وعلما مـستطرفًا، ورحـمة منتظرة، وكلـمة تدله على هدى، أو تردعـه عن ردى، وترك الذنوب حياء أو خشية».

هذه هى الآثار التى لا يعـادلها ثمن، ولا يقدرها مـال، من أجلها قـال الشيخ الزاهد **عبد الباقى بن يوسف**: «قعودى فى هذا المسجـد ساعة أحب إلى من ملك العراقـيين»، وإنما قال ذلك لأنه حقـقها فى نفسـه، أما غيـره ممن ضيع هذه الآثار فقعوده فى المسجد لا يساوى فى نظره فلسا أو فلسين.

فالمتـسابق الذى يريد أن يتزود من هذا المعين يخلع الدنيـا عن نفسه يخلعـها مع حذائه على باب المسجد، و (كما يشق النهر فـتقف الأرض عند شاطئيه لا تتقدم، يقام المسجد فتقف الأرض بمعانيها الترابية خلف جدرانه لا تدخله) (٢).

وصـاحبنا الذى ينوى أن يكـون فى السبـعين ألفا شـعـاره الطهر الذى يسـمى الوضوء، فكأنما يغسل بوضوئه آثار الدنيا عن أعضائه قبل دخول المسجد.

بـين الفـأرة والجـمل

قال ابن الجوزى:

«رأت فأرة جملاً فأعجـبها، فجرت خطامه فتبعهـا، فلما وصلت إلى باب بيتها وقف ونادى بلسان الحال: إمـا أن تتخذى دارًا يليق بمحبوبك، أو تتخـذى محبوبًا

---

(١) حلية الأولياء (٨/ ٣٥٥) .

(٢) وحى القلم للرافعى (١/ ٣١٨) .

يليق بدارك، خذ من هذا إشارة إما أن تصلى صلاة تليق بمعبودك، أو تتخذ معبودًا يليق بصلاتك»[(١)].

فهم **الأعمش** ما دار بين الفأرة والجمل فكان قريبًا من سبعين عامًا لم تفته التكبيرة الأولى، واختلف إليه صاحبه وكيع أكثر من ستين عامًا فما رآه يقضى ركعة، وعن أبى حيان عن أبيه قال: كان **الربيع بن خثيم** يقاد إلى الصلاة وبه الفالج (الشلل) فقيل له: قد رخص لك، قال: إنى أسمع «حى على الصلاة» فإن استطعتم أن تأتوها ولو حبوًا، وقيل **لكثير بن عبيد الحمصى** عن سبب عدم سهوه فى الصلاة قط، وقد أمّ أهل حمص ستين عامًا فقال: ما دخلت من باب المسجد قط وفى نفسى غير الله.

وكان المحدّث الثقة **بشر بن الحسن** يقال له الصفّى لأنه كان يلزم الصف الأول فى مسجد البصرة خمسين سنة، ومثله **إبراهيم بن ميمون** المروزى كانت مهنته الصياغة وطرق الذهب والفضة، قال ابن معين: كان إذا رفع المطرقة فسمع النداء لم يردها.

قال قاضى قضاة الشام **سليمان بن حمزة المقدسى**: لم أصل الفريضة قط منفردًا إلا مرتين وكأنى لم أصلهما قط، مع أنه قارب التسعين، هكذا كانوا فوصلوا وهكذا كن وإلا فلن تدرك الجياد السابقة كما لم يدركها **عبيد الله بن عمر القواريرى** شيخ البخارى ومسلم حيث قال:

«لم تكن تفوتنى صلاة العشاء فى الجماعة قط، فنزل لى ليلة ضيف فشغلت بسببه، وفاتتنى صلاة العشاء فى الجماعة فخرجت أطلب الصلاة فى مساجد البصرة، فوجدت الناس كلهم قد صلوا وغلقت المساجد فرجعت إلى بيتى، وقلت: قد ورد فى الحديث أن صلاة الجماعة تزيد على صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة، فصليت العشاء سبعًا وعشرين مرة، ثم نمت، فرأيت فى المنام

---

(١) المدهش ص (٤٧٢، ٤٧٣).

كأنى مع قوم على خيل، وأنا على فرس ونحن نستبق، وأنا أركض فرسى فلا ألحقهم، فالتفت إلى أحدهم: لا تتعب فرسك فلست تلحقنا. قلت: ولم؟ قال: لأنا صلينا العشاء فى جماعة وأنت صليت وحدك، فانتبهت وأنا مغموم حزين لذلك» [١].

والآن احزم حقائبك وجهز حقيبة جديدة لتملأها من زاد:

د ـ تلاوة القرآن :

قال **خباب بن الأرت**: تقرّب إلى الله بما استطعت، فلن يتقرب إلى الله بشيء أحب إليه مما خرج منه، وصدق فإن خير الشواغل التشاغل بالقرآن سواء فى تلاوته وحفظه، أو فهمه وتفسيره وتدبره.

لكنها ليست أى تلاوة، وإنما تلاوة متدبرة تتجاوز الألسنة إلى الأفئدة، فإن العبد قد يتكلم بالقرآن فيلعن نفسه، وهو لا يعلم يقول: ﴿أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ وهو ظالم لنفسه ويقرأ: ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ وهو منهم، أدرك ذلك أنس بن مالك فأطلق جرس التحذير معلنًا:

رب تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه

وتلاوة المتسابقين تلاوة متفردة حيث يشعر كل منهم أنه المخاطب بكل آية، فإذا سمع أمرًا، أو نهيًا قدر أنه المأمور والمنهى، فليست قصص السابقين للترويح والتسلية تمصمص لها الشفاة وتفغر لها الأفواه، وإنما ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾ [يوسف: ١١١]، قال على بن أبى طالب: لا خير فى عبادة لا فقه فيها، ولا خير فى قراءة لا تدبر فيها.

لكن كيف يتدبر القرآن رجل حديدةٌ قلبه باردة وتجارة آخرته كاسدة؟! آهات وآهات يطلقها **ابن الجوزى** من فرط أساه فيقول:

---

(١) إتحاف الأكابر بتهذيب كتاب الكبائر ص (٦٢، ٦٣) - تهذيب د. أسامة عبد العظيم - ط دار الفتح .

«آه للسان نطق بالإثم كيف غفل عن قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾، آه ليد امتدت للحرام كيف نسيت ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ﴾، آه لقد سعت فى الآثام كيف لم تتدبر ﴿وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾، آه لجسد ربا على الربا أما سمع منادى التحذير على ربا ﴿فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ﴾، آه لفم فغر فاه لتفريغ كأس الخمر أما بلغه زجر ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾[1].

وإذا كان الله قد قصد بالخطاب جميع الناس فقد قصد الآحاد، قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، فمن بلغه القرآن فكأنما كلمه الله، فليعلم كل من اشترك معنا أن هذا القرآن رسائل جاءتنا من ربنا نتدبرها فى الصلوات، ونقف عليها فى الخلوات، وننفذها فى الطاعات.

الإيمان قبل القرآن

نتدبر بالقلب، ونقف بالعقل، وننفذ بالجوارح، هكذا كان سلوك أصحاب محمد ﷺ مع القرآن كما رآهم **عبد الله بن عمر** - رضى الله عنه -، لكنه رأى بعدهم من خالفوا النهج فلم يجاوز القرآن حناجرهم، فقال بقلب محترق مكلوم: «لقد عشنا برهة من دهرنا وأحدنا يأتى الإيمان قبل القرآن، فتنزل السورة على محمد فنتعلم حلالها وحرامها، وأمرها وزجرها، وما ينبغى أن يقف عليه منها، ثم رأيت رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته ما يدرى ما أمره، ولا زجره، ولا ما ينبغى أن يقف عنده منه فينثره نثر الدقل»[2].

فيقرأه قراءة الجرائد، ويتصفحه تصفح المجلات، وتمله القلوب فلا تجد لقراءته لذة، ويهجر كتاب الله حتى يشكو تراكم التراب عليه، تمامًا كما تنبأ **معاذ بن جبل**: «سيبلى هذا القرآن فى صدور أقوام كما يبلى الثوب، فيُتهافت يقرؤونه لا يجدون له شهوة ولا لذة، يلبسون جلود الضأن على قلوب الذئاب، أعمالهم طمع لا

---

(١) التبصرة (١/ ١٨٩، ١٩٠).
(٢) قوت القلوب ص (١٢٢)، والدقل: أردأ أنواع التمر.

يخالطه خوف، إن قصـرّوا قالوا سنبلغ، وإن أساءوا قالوا سيغـفر لنا إنا لا نشرك بالله شيئًا» [١].

لــذة تقهــر الألــم

أمـا من اقـتفى الأثر ولزم الـطريق واستظـل بالراية، فـالقرآن لذته، والـقيـام مهجته، والترنم بالاستغفار فى الأسحار عنده أشهى من الماء البارد على الظمأ.

روى أن **محمد بن إسمـاعيل البخارى** دعى إلى بستـان بعض أصحـابه، فلما حضـرت صلاة الظهـر صلى القوم، ثم قـام للتطوع فأطال القـيام، فلمـا فرغ من صلاته رفع ذيل قمـيصه، فإذا زنبور قد أبّره فى ١٦ مـوضعًا، وقد تورّم من ذلك جسده، وكانت آثار الزنـبور فى جسده ظاهرة، فقال له بعضـهم: وكيف لم تخرج من الصلاة فى أول ما أبَّرك؟ فقال: «كنت فى سورة فأحببت أن أتمها» [٢].

والآن انظر إلى مؤشر الزاد لتقيس ما معـك فى ضوء هذه الحقيقة: لم يجالس أحد القرآن إلا قام بزيادة أو نقصان، قال تعالى: ﴿**هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا**﴾ [الإسراء: ٨٢].

فاذكر الله بلسان حسن صنعه يفتح أقفال قلبك
ويجل صدأ فكرك ويمنحك جائزة ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

ونزّه سمعك خلال رحلتك عن اللغو بالباطل، وانشغل بما ينفعك، واعلم أن:

حب الكتاب وحب ألحان الغنا ... فى قلب عـبد ليس يجتمعـان
ثقل الكتـاب عليهم لمـا رأوا ... تقـييده بشـرائع الإيمـان
واللـهو خـف عليهم لما رأوا ... مـا فيه من طـرب ومن ألحـان

صغـار المتسـابقين

ويدهش المرء حين يجد فى الحلبة مـتسابقين لو خاضوا سبـاقا غير (**سباق نحو الجنان**) ما أجيزوا لصغـر سنهم، لكن سباقنا هذا يستوى فيه الصـغير والكبير، بل

(١) سنن الدارمى رقم (٣٢١٢).
(٢) تاريخ بغداد (٢/ ١٢).

قد ينتصب الصغار أعلامًا ترفرف لتكون علامات ترشد الحيارى والتائهين، نزل فى واحتنا هذه برعم لم يتم سنواته الست، نقرأ خبره ونحن نغض الطرف حياء أن يسبقنا مثله:

قال الشيخ ابن ظفر المكى: «بلغنى أن **أبا يزيد طيفور بن عيسى البسطامى** لما تحفظ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ① قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [المزمل: ١، ٢]، قال لأبيه: يا أبت من الذى يقول الله له هذا؟ قال: يا بنى ذلك النبىﷺ، قال: يا أبت مالك لا تصنع كما صنع النبى محمد ﷺ؟ قال: يا بنى إن قيام الليل خصص به ﷺ، وبافتراضه دون أمته.

فسكت عنه فلما تحفظ قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ [المزمل: ٢٠]، وقال: يا أبت إنى أسمع أن طائفة كانوا يقومون الليل فمن هذه الطائفة؟ قال: يا بنى هؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين. قلت: يا أبت فأى خير فى ترك ما عمله الرسول ﷺ وأصحابه؟ قال: صدقت يا بنى، فكان أبوه بعد ذلك يقوم من الليل ويتوضأ ويصلى، فاستيقظ أبو يزيد ليلة فإذا أبوه يصلى فقال: يا أبت علمنى كيف أتطهر وأصلى معك، فقال أبوه: يا بنى ارقد فإنك صغير. قال: يا أبت إذا كان يوم يصدر الناس أشتاتًا ليروا أعمالهم أقول لربى: إنى قلت لأبى: كيف أتطهر لأصلى معك فأبى وقال لى: ارقد فإنك صغير بعد. أتحب هذا؟ فقال أبوه: لا والله يا بنى ما أحب هذا وعلّمه فكان يصلى معه» (١).

وبعد أن سمعت كلام الصغار، فاسمع كلام الكبار، وعِ بسمعك وبصرك كلمات **مكحول الدمشقى**:

اقرأ القرآن ما نهاك، فإذا لم ينهك فلست تقرأه.

والآن ونحن على وشك أن نودِّع واحة خمسية الصحابة بقى لنا أن نتزود بالزاد

(١) منهج التربية النبوية للطفل ص (١٣٠) - محمد نور عبد الحفيظ سويد - ط مؤسسة الكلمة .

الخامس والأخير وهو:

هـ - الجهاد فى سبيل الله :

إن واقعنا اليوم لم يفتح فيه باب الجهاد فى سبيل الله فى القتال... ولكن أبواب الجهاد الأخرى مفتوحة على مصراعيها.. ولله الحمد (والهدف من الدعوة والقتال واحد!! وهو إيصال الخير إلى الناس والفارق بينهما أن الدعوة تكون مع احتمال الأذى، والقتال يكون دعوة مع إزالة الأذى) [١]، وإذا كان باب الجهاد مغلقًا الآن فلترتبط نفسك وقلبك بالطيور الخضر التى تسرح فى الجنة تأكل من ثمارها وترد أنهارها تنتظر قدومك إليها فلتكن الشهادة أملك ودعاءك فى سجودك، كما كانت أمل **عمرو بن عتبة** التابعى الجليل حيث طلع على بعض رفقته وعلى رأسه جبة جديدة، فهل تدرى ما كانت تحدثه نفسه وهو يتزين بهذه الجبة؟ لقد ود لو تزين بوسام يمحو كل وسام إلا وسام النبوة، لقد قال لأصحابه، وهو يشير بإصبعه لمواضع فى الجبة: «ما أحب إلا أن ينحدر دمى على هذه الجبة ويجرى عليها هنا وهاهنا».

وفى يوم خرج مع صحابته بجبته، فاستقبلهم مرج ضاحك مبتهج، فما إن مشى فيه حتى أثارت نسماته مشاعر الشوق إلى لقاء زوجة من الحور العين لا تشبه نساء الدنيا لأن «ليس فى الجنة شىء مما فى الدنيا إلا الأسماء» [٢].

وكيف تشبه نساء الدنيا من خلقت من النور، ونشأت فى ظلال القصور، مع الولدان والحور، فى دار النعيم والسرور، والتى لو برز ظفرها لطمس بدر التمام، ولو ظهر سوارها ليلاً لانمحى عن الكون الظلام، ولو بدا معصمها لأسر كل الأنام، ولو تفلت فى ماء البحر لقلبته عذبًا، ولو اطلعت بين السماء والأرض لملأت ما بينهما نورًا وعطرًا، فبالله كيف يتأخر العاقل عن وصال مثل هذه؟! وفى الجنة أمثال أمثالها بل أمثال أمثال أمثالها، أيقن عمرو بذلك - وقليل من أيقن -

---

(١) قواعد الدعوة إلى الله ص (١٢٧) - د. همام سعيد - ط دار الوفاء .

(٢) رواه الضياء عن ابن عباس وهو حديث موقوف كما فى السلسلة الصحيحة رقم (٢١٨٨) .

فابتعثت من أعماقه صادقة: «ما أحسن هذا المرج، ما أحسن هذا المرج، ما أحسن الآن لو أن مناديا نادى: يا خيل الله اركبى» (١).

وكأن الرجل يقسم على الله فما أسرع ما أبر الله قسمه، فإذا بمناد ينادى: يا خيل الله اركبى، فركب عمرو، وعلم أبوه بركوبه، فقال: علىّ عمرًا.. علىّ عمرًا، فأرسل فى طلبه، فما أدركه حتى أصيب.

يا لقدر الله!! أصيب بحجر إصابة ليس لمثلها أن تكون قاتلة! أصابه جرح صغير فجعل يخاطبه، وهو يرى الدم يجرى منه على المكان الذى أشار إليه بأصبعه فى جبته ويقول: والله إنك لصغير، وإن يشأ الله يبارك فى الصغير.

فلما حل المساء، بارك الله فى الجرح الصغير فصار كبيرًا، وجاءت الشهادة!!

ثانياً: أن تعرف عقبات الطريق

لكن الشيطان يغيظه ويحنقه أن يقترب المتسابقون من خط النهاية، ويبقى فى النار وحيدًا فينصب الكمائن، ويضع العقبات يبغى بذلك عرقلة متسابق فذ، أو حر تسبقه خطواته إلى الجنان، فيجتمع من هذا وذاك جمهوره الذى يخطب فيه يوم القيامة خطبته الجهنمية التى جاء فيها: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وصدق وهو كذوب فما كان شغله فى الدنيا غير وضع العقبات ونصب الكمائن، لكن الله حذرنًا منه، وقد أعذر من أنذر ﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧]، فحذار أن تنسى أن الشيطان فارغ وأنت مشغول، لا ينام وتنام، لا تراه ويراك، لا ينساك وتنساه، ومن نفسك للشيطان عليك عون، إن فتر فى الظاهر أبطن لك مكيدة فى الباطن، وإن مهّد لك طريقًا فى العلن نصب لك كمينا فى السر، ولأن النبى ﷺ علمنا أن الدين النصيحة

(١) حلية الأولياء (٤/ ١٥٦).

وجب علينا أن نقول لكم: ﴿**خذوا حذركم**﴾.

والآن.. تنبيه إلى جموع المتسابقين: استعدوا لتفادى هذه العقبة وهى

العقبة الأولى:

طول الأمل

عقبة كؤود يسقط على أثرها الكثيرون من أجل ذلك فحبنا فى الله يدفعنا دفعًا إلى أن يهز أحدنا أخاه إذا أحس منه غفلة، أو لمس منه أملا بعيدًا يصرفه عن الطاعات ويصيح فيه:

أفق من سباتك قبل أن ينادى فيك بالرحيل.

وكما يسأل أهل الدنيا إخوانهم عن الصحة والعيال فإن أهل الآخرة بعد السؤال عما سأل عنه إخوان الدنيا يسألون عن الآخرة والمآل، كما كتب هذا المتسابق إلى أخيه فى رسالة جاء فيها:

أخى الحبيب ..

فإن الدنيا حلم، والآخرة يقظة،

والمتوسط بينهما الموت ونحن فى أضغاث أحلام.

والسلام

هكذا فى إيجاز دون مقدمات أو مجاملات: أوجز فأنجز، فيا أيها المغرور بطول صحته: أما رأيت ميتًا من غير سقم؟ ويا أيها المغرور بطول المهلة: أما رأيت مأخوذًا قط من غير عدة؟ أبالصحة تغتر؟ أم بطول العاقبة تستخف؟ أم الموت تأمن؟ أم على ملك الموت تجترئ؟ إن ملك الموت إذا جاء لا يمنعه منك كثرة مالك، ولا احتشاد أتباعك، ولا يطرق بابك ليستأذنك يقبض روحك أم لا!!

لا تأمن الموت فى طرف وفى نفس	وإن تسترت بالحُجّاب والحرس
وأعلم بأن سهام الموت قاصدة	لكل مدرّع منا ومتّرس

مــا بال دينــك تــرضى أن تدنسه وثــوبك الـدهر مغسول من الدنس
ترجـو النجـاة ولم تسـلك مسالكها إن الســفينة لا تجرى على اليبس

لكن العـقول تسهـو والقلوب تقسـو.. يغلفهـا ران الذنوب، وتحجـبهـا ظلمة المعصية.. حتى تصاب بالزكام فتحتاج إلى استنشاق ريح قميص يوسف يلقى على القلب الأعمى فيرتد بصيرًا، نسج هذا القميص **عمر بن عبد العزيز** الخليفة الذى أحيـا الله على يدية موات أمة خـلال سنتين وخمـسة أشهـر من خلافتـه، وبعثت كلماته الروح فى أوصال أمته، وحفظها لنا الرواة لعلها تبعث الروح فينا قال رحمه الله:

«أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثـا، ولن تتركوا سدى، وإن لكم معادًا ينزل الله فيـه ليحكم بين الناس ويفـصل بينهم، فخـاب وخسـر من خرج من رحـمة الله، وحرم جنة عرضـها السماوات والأرض، ألم تعلمـوا أنه لا يأمن غدًا إلا من حذر الله وخافـه، وباع نافدًا بباق وقليـلاً بكثير، ألا ترون أنكم فى أسـلاب الهالكين؟ ستصير بعدكم للباقين، وكذلك حتى ترد إلى خير الوارثين» [١].

ثم يقدم الدليل لمن طلب الدليل:

«ألا ترون أنكم تشـيعون فى كل يوم غـاديًا، ورائحًا إلى الله تعالى، قـد قضى نحبه، وانقضى أجله... حتى تغيـبوه فى بطن الأرض فى شق صدع، ثم تتركوه غير ممهد ولا موسّد، قد فارق الدنيا والأحـباب، وباشر التراب، موجهًا الحساب، مرتهنا بما عمل، غنيـا عما ترك، فقيـرًا إلى ما قدّم» [٢]، ووضع الرجل كـمه على وجهه يبكى ومـا عاد إلى مجلسه حتـى مات وكانت وصية مـودّع فكانت أكثر من صادقة.

ومـا أبلغ تصـوير النبى ﷺ لـطول الأمل حـيث روى أنس بن مـالك: «خط رسول الله ﷺ خطا وقال: هذا الإنسـان، وخط إلى جنبه خطا وقال: هذا أجله،

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص (٢٠٠).
(٢) السابق ص (٢٠٠).

وخطَّ آخر بعيدًا منه فقال: هذا الأمل، فبينما هو كذلك إذ جاءه الأقرب»[(١)].

فبينما هو يحلم بالدور الفسيحة، والسيارات الفارهة، والصفقات الرابحة... إذ وافاه الأقرب (الأجل) كعادته... فجأة دون مقدمات.

فبات يُروِّى أصول الفسيل فعاش الفسيل ومات الرجل

أعراض المرض:

إن طول الأمل مرض عضال وداء مزمن إذا أصاب الإنسان أهلكه لا محالة لأن طول الأمل داء ولود يلد أمراض فرعية كثيرة، مثل «الكسل عن الطاعة، والتسويف بالتوبة، والرغبة فى الدنيا، والنسيان للآخرة، والقسوة فى القلب، لأن رقته وصفاءه إنما يقع بذكر الموت والقبر والثواب والعقاب»[(٢)].

ويجملها الحسن البصرى فى عبارة واحدة:

«ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل»[(٣)]

أسبابه ودواؤه:

شخَّص أطباء القلوب هذا المرض وعزوه إلى:

(١) السبب الأول: الجهل:

فالشاب يستبعد الموت لصحته، ويستبعد الموت فجأة، ولا يدرى أن ذلك غير بعيد، فالمرض فجأة غير بعيد، وكل مرض يقع فجأة، وإذا مرضت لم يكن الموت منك بعيدا، فكم منا من يظن أنه سيظل يحمل الموتى على الأعناق، ولا يقدِّر أن يُحمل هو على الأعناق، ويتعامى عن الحقيقة التى تهجاها لنا رسول الله ﷺ حرفًا حرفًا:

---

(١) رواه البخارى واللفظ له والترمذى عن أنس كما فى صحيح المشكاة رقم (٥٢٧٧).
(٢) فتح البارى لابن حجر (١١/ ٢٣٧) - ط دار المعرفة.
(٣) البيان والتبيين (٣/ ٧٤).

«إن الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك»[١].

عاش الفتى مرح الخطا فرحًا بما ... يسعى له إذ قيل: قد مرض الفتى

إذ قيل: بات بليلة ما نامها ... إذ قيل: أصبح مثخنا ما يرتجى

إذ قيل: أصبح شاخصًا وموجّهًا ... ومعدّلا إذ قيل: أصبح قد قضى

الدواء:

هذا الدواء تم تركيبه فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه على يد رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وإليك دواءنا:

مجالسة الصالحين ممن يذكرونك بالآخرة، وسماع الحكمة من القلوب الطاهرة، وهى وصية الأنبياء والصالحين فينا. قال **عيسى** ـ عليه السلام ـ: «جالسوا من تذكركم بالله رؤيته، ومن يزيد فى عملكم منطقه، ومن يرغبكم فى الآخرة عمله»[٢].

وقد كان هذا النوع الكريم فى السلف منتشرًا حيث كان التابعى **محمد بن سيرين** إذا مرّ فى السوق فما يراه من أحد إلا ذكر الله، وكان إذا ذكر الموت مات كل عضو منه، ويشترك معه فى هذه الصفة **الحسن البصرى** الذى كان يوصف كلامه بأنه أشبه بكلام الأنبياء، قال أشعب بن عبد الله أحد أصحابه: كنا إذا دخلنا على الحسن خرجنا، ولا نعد الدنيا شيئًا. وقال يونس بن عبيد: كان الرجل إذا نظر إلى الحسن انتفع به وإن لم ير عمله، ولم يسمع كلامه، ثم وصفه فقال: كان إذا أقبل فكأنما أقبل من دفن حميمه، وإذا جلس فكأنما أمر بضرب عنقه، وإذا ذكرت النار فكأنما لم تخلق إلا له.

ومن نفس النوع **صفوان المازنى**، يقول غيلان بن جرير: كانوا يجتمعون فلا يجدون لقلوبهم رقة فيقولون: يا صفوان حدث أصحابك، فيقول: الحمد لله، ما يقول غيرها، وتسيل الدموع من أعينهم كأنها أفواه المزادة.

(١) رواه البخارى وأحمد عن ابن مسعود كما فى ص ج ص رقم (٣١١٠).

(٢) البيان والتبيين (٣/ ٨٧).

فاعلم أن هؤلاء ما ورَّثوا ديناراً ولا درهما، وإنما ورّثوا خشية، فصاحب ورثة ابن سيرين، والبصرى، والمازنى تكن من الفائزين وتحشر فى صفهم.

(٢) السبب الثاني: حب الدنيا :

فإذا أنس المتسابق بها، ونسى أنها ممر وليست مقرًا اتخذها قراراً لا داراً، وثقل عليه مفارقتها، فلا يفكر فى الموت الذى هو سبب مفارقتها، ولا يقدّر قربه، وإن خطر له الموت يومًا سوّف، وقال: الأيام بين يديك، عش شبابك وما تزال الأيام تمضى حتى يكبر، فإذا كبر سوَّف وقال: حتى تفرغ من هذه العمارة أو ترجع من هذه السفرة وفجأة... الموت... وهنا يعلو الصراخ فى القبور الذى يصك الآذان، ويسمعه كل الخلائق إلا الإنس والجن: رب لا تقم الساعة.. رب لا تقم الساعة، وتكون مشاهد الحسرة وهم يتقلبون فى نار الآخرة.. فهذا يصرخ: يا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله، وهذا يعوى: لو أن الله هدانى، وثالث يصب عليه العذاب فيجأر: لو أن لى كرة، ولكن هيهات.. هيهات.. قضى الأمر، ذهبت حلاوة البطالة وبقيت مرارة الأسف، ونضب ماء الكسل وبقيت رواسب الندامة، تركتم البكاء فى الدار التى يُرحم فيها من بكى، وبكيتم فى دار لا ينفع فيها البكاء ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٤].

مثل الدنيا والموت

ذكر عن بعض الصالحين أنه قال: «رأيت فى المنام رجلا وهو فى بريّة (غابة) وأمامه غزالة، وهو يجرى خلفها وهى تفر منه، وأسد كأعظم ما يكون خلقه وقد هم أن يلحقه، والأسد يمد رأسه للرجل فلا يجزع منه، ثم يجرى خلف الغزالة حتى لحق به الأسد فقتله، فوقفت الغزالة تنظر إليه وهو مقتول، إذ جاء رجل آخر قد فعل ما فعله المقتول فقتله الأسد ولم يدرك الغزالة، فخرج آخر ففعل ذلك، قال: فما زلت أعدّ واحدًا بعد واحد حتى عددت مائة رجل صرعى والغزالة واقفة، فقلت: إن هذا لعجب، فقال الأسد: مم تعجب؟ أو ما تدرى من أنا ومن

هذه الغزالة؟ فقلت: لا، فقال: أنا ملك الموت، وهذه الغزالة الدنيا وهؤلاء أهلها يجرون فى طلبها، وأنا أقتلهم واحدًا بعد واحد حتى آتى على آخرهم»[١].

حتى متى وإلى متى تتوانى؟ وتعب من كأس الهوى ألوانا
والموت يطلبنا حثيثًا مسرعًا إن لم يزرنا بكرة مسَّانا
إنا لنوعظ بكرة وعشية وكأنما يعنى بذاك سوانا

والآن فليلهج لسانك فى شوق ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ دون تسويف أو تردد، فقطار التوبة ربما مضى إلى غير عودة، فالحذر من (سوف) كل الحذر فإنها المهلكة، وما مثال المسوّف إلا مثال من احتاج إلى قلع شجرة فرآها قوية لا تنقلع إلا بمشقة شديدة، فقال: أؤخرها سنة ثم أعود إليها، وهو لا يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه، حتى يذهب عمره سدى فيخرج من الدنيا خاوى الوفاض بادى الحسرات. قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨]، فسّرها التابعى أبو الجوزاء أوس بن عبد الله البصرى فقال: «تسويفًا»[٢].

الدواء:

أخى الحبيب: دواؤنا لهذا الداء العضال أخرجته مصانعنا الإيمانية بعناية ربانية ويتمثل فى:

إخراج حب الدنيا من القلب، ومعرفة قدرها، وأنها لا تساوى عند الله جناح بعوضة، ولو كانت تساوى عنده ذلك ما سقى كافرًا منها شربة ماء، فيا سادرًا فى غفلته أما آن لك أن تدرك ما أدركه الطفل عند مولده:

ولما تعد الدنيا به من شرورها يكون بكاء الطفل ساعة يوضع
وإلا فما يبكيه منها وإنها لأنعم مما كان فيه وأوسع
إذا أبصر الدنيا استهل كأنما يرى ما سيلقى من أذاها ويسمع

(١) بستان الواعظين ورياض السامعين لابن الجوزى ص (١٣٤) - ط دار الريان للتراث .
(٢) اقتضاء القول العمل ص (١٤٠) - الحافظ أبو بكر البغدادى - ط مجلس البنجرى .

فإذا أبى متسابق أن يصدق كلامنا وأبى إلا الإثبات المادى أتيناه بكلام خير الأنام محمد ﷺ: «مـا الدنيا فى الآخرة إلا كما يمشى أحدكم إلى اليم، فـأدخل إصبعه فيه، فما خرج منه فهو الدنيا» (١).

وأتبعناه بسهام الحق يصوبّها إلى القلوب الغافلة **الفضيل بن عياض** فيقول: «لو كانت الدنيـا ذهبًا يفنى، والآخرة خزفًا يبـقى لكان ينبغى أن تؤثر خـزفًا يبقى على ذهب يفنى، فكيف والدنيا خزف يفنى، والآخرة ذهب يبقى؟!» (٢).

فإياك أن ترضى بالدنيـا جزاءً ومصيرًا فـالدنيا ظاهرها غرة وباطنها عـبرة، وكان السلف إذا أقبلت الدنيا قالوا: ذنب عجلت عقوبته، وإذا أقبل الفقر قالوا: مرحبا بشعار الصـالحين، وهذا سيد الأنام ﷺ عرضت عليه كنوز الدنيا ومـفاتيح خزائن الأرض فأبى إلا أن يجوع يومًا ويفطر يومًا زهداً فيما حوته من فتنة، ورجوعًا إلى ما دلت عليه من عبرة.

والدنيا هدية بلقيس ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾، فالتمس قبسًا من أنوار سليمان وامض على طريقه إذ قال: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾، وارفضها وتطلع لما هو أنفس وأغلى، وكن من أبناء الآخرة، ولا تكن من أبناء الدنيا فالولد يتبع الأم.

وضع هذه الحقيـقة المجردة نصب عينك، نـبعثها لكل من غـرق فى حب دنياه وعبَّ منها حتى الثمالة:

وفى قبض كـف الطفل عند ميلاده دليل على الحرص المركّب فى الحى
وفى بسطهما عـند الممـات إشـارة ألا فاشهـدوا أنى رحلت بلا شى

فإن لم تُجْدِ كـلماتنا فى إخـراج حب الدنيا من قلبك فـالموت يكفيك ويـفضل عليك فأحى ذكره فى قلبك، وليس ذلك إلا بأن تنظر فى أعـضائك، وتتدبر كيف سيأكلها الدود لا محالة، وسيبدأ بالعين اليمنى قبل اليسرى.

---

(١) رواه الحاكم فى المستدرك عن المستورد كما فى ص ج ص رقم (٥٤٢٣).
(٢) مكاشفة القلوب ص (١٢٧).

ناديت سكان القبور فأسكتوا فأجابنى عن صمتهم ترب الحشا
قالت أتدرى ما صنعت بساكنى؟ مزّقت لحمهم وخرقت الكسا
وحشوت أعينهم ترابا بعدما كانت تأذّى باليسير من القذى
أما العظام فإننى مزقتها حتى تباينت المفاصل والشوى
قطعت ذا من ذا ومن هذا كذا فتركتها مما يطول بها البلى

هذه النظرية طبقها عمر بن عبد العزيز بعد أن أثبت صحتها لمحمد بن كعب القرظى. يقول محمد: لما استخلف عمر بعث إلىّ وأنا فى المدينة فلما دخلت عليه، جعلت أنظر إليه نظرًا لا أحرف نظرى عنه فقال: يا ابن كعب إنك تنظر إلى نظرًا ما كنت تنظره؟ قلت: تعجبًا. قال: ما أعجبك؟ قال: يا أمير المؤمنين أعجبنى ما حال من لونك، ونحل من جسمك، ونفى من شعرك، فقال: كيف لو رأيتنى بعد ثلاثة أيام من موتى، وقد دليت من حفرتى، فسالت حدقى على وجنتى، وسال منخرى صديدًا ودودًا.

باتوا على قلل الجبال تحرسهم غلب الرجال فلم تنفعهم القلل
واستنزلوا من أعالى عز معقلهم وأسكنوا حفرًا يا بئس ما سكنوا
ناداهم صارخ بعدما دفنوا أين الأسرة والتيجان والحلل
أين الوجوه التى كانت محجبّة من دونها نضرب الأستار والكلل
قد أفصح القبر عنهم حين ساءلهم تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
قد طال ما أكلوا دهرًا وما طعموا فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا

فإذا طبقت نظرية عمر فأتبعها بذكر من مات من الأقران تشف من حب الدنيا وتؤثر الآخرة عليها، وتدبر كيف أن الموت جاءهم من حيث لم يحتسبوا فمن كان منهم قد استعد فقد فاز، ومن كان مغرمًا بطول الأمل فقد خسر خسرانًا مبينا.

لقد كان فى قصصهم عبرة

وإليك خبر من ابتلى بهذا المرض ولم يأخذ دواءنا فكان هذا مصيره:

قال **منصور بن عباد**: كان لى صديق مسرف على نفسه ثم تاب، وكنت أراه

كثير التهجد والعبادة فافتقدته يومًا، فقيل: مريض، فاستأذنت عليه فوجدته مضطجعًا في وسط الدار، وقد اسود وجهه واحمرت عيناه، وغلظت شفتاه، فقلت له وأنا خائف: يا أخي أكثر من قول لا إله إلا الله ففتح عينيه، ونظر إلى ثم غشي عليه، كلما أعدت عليه الشهادتين نظر إليَّ ثم غشي عليه حتى قال لي: حيل بيني وبينها. قلت: لا حول ولا قوة إلا بالله، ولماذا؟!! وأين الصلاة والقيام والقرآن؟ قال: كنت أفعل ذلك رئاء الناس، فإذا خلوت إلى نفسي أرخيت الستور، وشربت الخمور، وأقمت على ذلك حتى أصابني الله بالمرض وأشرفت على الهلاك، فقلت لابنتي: ناوليني المصحف، وقلت: اللهم اشفني ولا أعود إلى ذنب أبدًا، ففرج الله عني، فلما شفيت عدت إلى ما كنت عليه، وخنت العهد الذي عقدته مع ربي، وبقيت على ذلك حتى ابتلاني الله بالمرض، وأوشكت على الهلاك، ففعلت كما فعلت في المرة الأولى فدعوت الله: اللهم اشفني وفرّج عني ففرج الله عني، ثم عدت إلى ما كنت عليه من الذنب فوقعت في مرضي هذا، فأمرت أهلي أن يخرجوني وسط الدار كما تراني، فدعوت بالمصحف لأقرأ، فلم أتبين حرفًا واحدًا، فعلمت أن الله غضب علي غضبًا شديدًا فرفعت بصري إلى السماء، وقلت: اللهم فرج عني يا جبار السماوات والأرض فسمعت هاتفًا يقول:

تتوب عن الذنوب إذا مرضتا ... وترجع للذنوب إذا شفيتا

فكم من كربة نجّاك منها ... وكم كشف البلاء إذا بليتا

أما تخشى بأن تأتي المنايا ... وأنت على الخطايا قد دهيتا

قال منصور: فوالله ما خرجت من عنده إلا وعيني تسكب العبرات، فما وصلت إلى الباب إلا وقيل لي قد مات.

فانظر ـ حفظك الله ـ إلى طول الأمل كيف أدى إلى سوء الخاتمة، ولا نملك أن نعلق على الكلام، فالحروف تكاد تبرز فوق الأسطر يتحسسها كل أعمى إن شكا ضعف البصر، ومن لم يعتبر بغيره اعتبر به غيره، فالعمل العمل قبل أن يستوى عليك الليل والنهار، ورحم الله امرءً نظر في نفسه، وبكى على ذنوبه، وتذكر

قول ربه: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ يعنى الأنفاس، آخر العدد خروج روحك.. آخر العدد.. فراق أهلك.. آخر العدد.. دخولك إلى قبرك.. فالبدار البدار فإنها الأنفاس لو حبست انقطعت أعمالك التى تتقرب بها إلى الله وخرجت من حلبة السباق.

قف.!

حذار أن تفهم من كلماتنا أننا نحرِّم طيبات ما أحل الله لك ونطلب منك اعتزال الناس، فالدنيا المذمومة التى نحذر منها هى اتباع الشهوات واتخاذ المال أو الجاه، أو القوة وسيلة للانحراف عن السبيل المستقيم، والزهد فيها معناه: ألا تستعبد الإنسان، وألا تجعله خادمًا لها، ألا يجرى وراءها فى جشع ولهفة، وحب يعمى ويصم، ويرسم القرآن ذلك: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

ذم رجل الدنيا عند **على بن أبى طالب** فقال على: «الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار نجاة لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزود منها، ومهبط وحى الله، ومصلى ملائكته، ومسجد أنبيائه، ومتجر أوليائه، ربحوا فيها الرحمة، واكتسبوا فيها الجنة، فمن ذا الذى يذمها؟!!» (١).

لكن من اشترك فى نادى المتسابقين لا يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل، بل دنياه طوع أمر دينه، دنياه فى يده أما دينه فهو فى قلبه، وقلبه لا يتسع لشريكين ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤].

لذا قال النبى ﷺ: «حلوة الدنيا مرة الآخرة، ومرة الدنيا حلوة الآخرة» (٢).

قال المناوى: «يعنى لا تجتمع الرغبة فيها والرغبة فى الله والآخرة بها، ولا تسكن هاتان الرغبتان فى محل واحد، وإلا طردت إحداهما الأخرى، واستبدت

---

(١) البيان والتبيين (٢/ ١٠٢).

(٢) رواه أحمد والطبرانى والحاكم عن أبى مالك الأشعرى كما فى السلسلة الصحيحة رقم (١٨١٧).

بالمسكن، فإن النفس واحدة والقلب واحد فإذا اشتغلت بشيء انقطع ضده»[(١)].

فاجعل الآخرة همك تأتك الدنيا راكعة تحت أقدامك، فإنك إن تجعل الدنيا همك لم يبال الله فى أى أوديتها هلكت. قال ﷺ: «من كانت همه الآخرة جمع الله له شمله، وجعل غناه فى قلبه، وأتته الدنيا راغمة، ومن كانت همه الدنيا فرق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب الله له»[(٢)].

ولما حمل **الإمام أحمد** هم الآخرة وعمل له أتته الدنيا فركلها بعيدًا، وتركها قبل أن تتركه. قال إدريس الحداد: «لما كان أيام المحنة صُرف إلى بيته، وحُمل إليه مال، فرده وهو محتاج إلى رغيف، فجعل عمه إسحاق يحسب ما يرد، فإذا هو خمسمائة ألف، قال: يا عم.. لو طلبناه لم يأتنا، وإنما أتانا لما تركناه»[(٣)].

إن كنت قد اجتزت عقبة طول الأمل ولم تكن من ضحاياها اغتاظ الشيطان، وعضَّ أصابع الندم على صيد ثمين طار من بين يديه وجدَّ فى نصب الكمين الثانى ليوقع الناجين فى:

العقبة الثانية:

خواء القلب

من أخطر العقبات وأشدها لأن القلب (أصل الكل، إن أفسدته فسد الكل، وإن أصلحته صلح الكل، إذ هو الشجرة وسائر الأعضاء أغصان، ومن الشجرة تشرب الأغصان وتصلح وتفسد، وإنه الملك وسائر الأعضاء تبع وأركان، وإذا صلح الملك صلحت الرعية وإذا فسد فسدت، فإذا صلاح العين واللسان والبطن وغيره دليل على صلاح القلب وعمرانه، وإذا رأيت فيها خللاً وفسادًا فاعلم أن

(١) فيض القدير (٣/ ٣٩٦) - عبد الرؤوف المناوى - ط دار النهضة الحديثة - بيروت.
(٢) رواه ابن ماجه عن زيد بن ثابت كما فى ص ج ص رقم (٦٣٩٢).
(٣) سير أعلام النبلاء (١١/ ٣٠٠).

ذلك من خلل في القلب وفساد وقع ثم، بل الفساد فيه أكثر، فاصرف عنايتك إليه فأصلحه يصلح الكل بمرة وتستريح) [(١)].

وإذا غلب حب الشهوات في القلب وجد الشيطان بابًا فوسوس، وإذا غلب حب الطاعات أقبل الملك وألهم، والتطارد بين الملك والشيطان قائم حتى يظهر أحدهما على الآخر، ويرفع راية النصر، وفي ذلك يقول النبي ﷺ:

«ما من خارج يخرج من بيته، إلا ببابه رايتان راية بيد ملك، وراية بيد شيطان، فإن خرج لما يحب الله عَزَّ وجَلَّ اتبعه الملك برايته، فلم يزل تحت راية الملك حتى يرجع إلى بيته، وإن خرج لما يسخط الله اتبعه الشيطان برايته، فلم يزل تحت راية الشيطان حتى يرجع إلى بيته» [(٢)]، والآن اسأل نفسك أيها المتسابق: تحت أي الرايتين تقف؟!!

وإذا كانت الشهوات زاد الشيطان الذي يحيا عليه، ويموت بفقده فإن القلب السبّاق إلى الله، يطهر نفسه من هذا الزاد الخبيث، ويستبدله بزاد الملائكة وهو الذكر، ولذلك لما شكا رجل إلى العلاء بن زياد وسوسة الشيطان قال: «إنما مثل ذلك مثل البيت الذي يمر عليه اللصوص فإن كان فيه شيء عالجوه، وإلا مضوا».

شيء: شهوة جاثمة، أو نظرة فاجرة، أو غفلة مهلكة تدعو الشيطان إلى الدخول فيدخل ويرتع وينصب خيمته.

وكما يطرد الليل النهار يطرد الذكر الشيطان فإذا ذُكر الله خنس، وإذا غفل انبسط على القلب ينسج بذلك حجابًا لا يخترقه نور الهداية، ولا ينفذ إليه ضياء القرآن قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥].

---

(١) منهاج العابدين ص (١٣١).

(٢) رواه أحمد عن أبي هريرة والطبراني في الأوسط كما في مجمع الزوائد (١/ ١٣٢).

أول الغـــيث قـطـــرة

لكن هذا الحجاب لا يظهر فجأة، إنما هى قطرة فقطرة حتى يأتى السيل، فكلمة غيبة من هنا تنكت بها نكتة سوداء على نظرة إلى حرام من هناك تنكت نكتة أخرى فـينسج الشيطان من هذه وتـلك حجـابًا حول القلب، قـال ﷺ: «إن المؤمن إذا أذنب ذنبًا نكت فى قلبه نكتة سوداء، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، وإن زاد زادت حتى يعلـو قلبه ذلك الرين الذى ذكـر الله عَزَّ وجَلَّ فى القرآن ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]» (١).

ويقرأ **ابن جرير** هذا الحديث وكأن الله قد قذف فى قلبـه نورًا يملأ قلبه فيفيض علينا ويقـول: أخبـر النبى ﷺ أن الذنوب إذا تتابعت على القـلوب أغلقتـها وإذا أغلقتها أتـاها حينئذ الختم من قبل الله والطبع فلا يكون للإيمان إلـيها مسلك، ولا للكفر عنها مخلص، فـذلك هو الختم والطبع الذى ذكره فى قوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة : ٧].

ويستـمر القوم فى تتبـع آثار الأنوار المشرقة فيلقـى هذه الكلمات النيّرات ملك كريم على لسان **مجاهد** فيقول فى زيادة إيضـاح: «القلب هكذا وبسط كفه، فإذا أذنب الرجل قال هكذا، فـعقد واحد، ثم إذا أذنب قال هكذا، وعـقد اثنين، ثم ثلاثًا، ثم أربعًا، ثم رد الإبهام على الإصبع فى الـذنب الخامس، يطبع على قلبه، فأيكم يرى أنه لم يطبع على قلبه؟!» (٢).

كـــيف تعـــبر هـــذه العقـــبة ؟

لكن متـسابقنا الفـذ يحصّن دفـاعات قلبه ضـد هجمـات الشيطان ومـحاولات تسلله، فإن نجحت إحدى المحاولات كانت فى أوقات الفلتات على سبيل الخلسة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

---

(١) رواه أحمد والترمذى وابن حبان عن أبى هريرة، وحسنه الألبانى فى ص ج ص رقم (١٦٦٦).
(٢) ذم الهوى ص (٦٠) - ابن الجوزى - ط دار الكتب العلمية .

تذكروا.. فاستغفروا.. فأنابوا دون تلكؤ أو إبطاء لأنهم يعلمون أن (وقوع الذنب على القلب كوقوع الدهن على الثوب، إن لم تُعجّل غسله انبسط) (١).

وفى غرة هؤلاء المتسابقين الأفذاذ الفاروق عمر الذى قطع على شيطانه كل السبل، فأيس منه بل خاف فلم يعد يجرؤ على أن يسلك طريقًا يرى فيه شبح ابن الخطاب، وصدق رسول الله ﷺ حين قال مخاطبًا عمر: «والذى نفسى بيده، ما لقيك الشيطان قط سالكًا فجا إلا سلك فجا غير فجك» (٢).

والسر فى هذا أنه طهَّر قلبه من قوت الشيطان (الشهوات) فمهما طلبت أن تنال مرتبة عمر، ولم تطهّر قلبك من شهواته كما طهَّره عمر كان ذلك محالاً، فإن الذكر إذا نزل قلبا فارغًا من الشهوات اندفع الشيطان كما يندفع المرض عند نزول الدواء على المعدة الخالية من الطعام ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧].

فقدّم تخلية القلب من الشهوات بالتقوى
ثم داوِ بدواء الذكر يفرّ الشيطان منك كما فرّ من عمر.

تخلية القلب من الشهوات إذن هى السبيل، أو إن شئت فسمها الحياة كما سماها **الحسن البصرى** حين زفر بأنّات قال فيها: «يا لها من موعظة لو صادفت من القلوب حياة» (٣).

احرس بيتك

قال بعض الحكماء: «القلب مثل بيت له ستة أبواب ثم قيل لك: احذر ألا يدخل عليك من أحد الأبواب شيء فيفسد عليك البيت.. فالقلب هو البيت والأبواب: العينان واللسان والسمع والبصر واليدان والرجلان، فمتى انفتح باب

---

(١) المواعظ والمجالس ص (١٢٤).
(٢) رواه البخارى ومسلم وأحمد عن سعد كما فى ص ج ص رقم (٢٦٦٤).
(٣) العقد الفريد (٣/ ٧٦) - ابن عبد ربه الأندلسى - ط دار الفكر.

من هذه الأبواب بغير علم ضاع البيت» [١].

والآن ونحن على مشارف اجتياز هذه العقبة نهمس فى أذنك بما همس لنا به **وهب بن الورد** ونقول:

«اتق الله ولا تسب الشيطان فى العلانية وأنت صديقه فى السر» [٢].

الحمد لله عبرنا هذه العقبة ونسأل الله العون لكى نعبر

العقبة الثالثة:

العوائق السبعة

وقد فصلها لنا خير الخلق وأكرمهم على الله فروى عنه ﷺ أنه قال: «بادروا بالأعمال سبعًا، هل تنتظرون إلا فقرًا منسيًا، أو غنى مطغيا، أو حرصًا مفسدًا، أو هرمًا مفندًا، أو موتًا مجهزًا، أو الدجال فشر غائب ينتظر أو الساعة فالساعة أدهى وأمر» [٣].

فهذه فى الحقيقة سبعة أودية مهلكة يمر بها المتسابق فى طريقه إلى اللحاق بركب عكاشة فيلقى عندها قتلى كثيرين صرعى هوى وعبيد شهوة، ضمهم الشيطان إلى حزبه ﴿أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩]، فعلى كل متسابق أن يتحسس موضع قدمه، وليحذر أن تنزلق قدم فيهوى فى واد سيحق من هذه الأودية حذره رسول الله ﷺ منه وأبى إلا المخالفة.

هذه الأودية يتبع بعضها بعضًا فما إن تعبر أحدها وتظن أنك قد نجوت حتى تسقط فى الثانى فإن نجوت من «فقرًا منسيًا» واجهك «غنى مطغيًا» ما لم يعصمك

(١) رسالة المسترشدين ص (١١٥، ١١٦).
(٢) حلية الأولياء (٨/ ١٥٤)، صفة الصفوة (٤/ ١٣٥).
(٣) رواه الترمذى عن أبى هريرة وفيه محرر بن هارون وهو متروك، ولذا ضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع رقم (٢٣١٤).

الله، وإن نجوت من «هرمًا مفندًا» جاءتك رصاصة طائشة، أو سيارة مسرعة فتلقى بذلك «موتًا مجهزًا»، فإن لم يكن شيء من ذلك فخروج الدجال بين يديك، وما أشدها من فتنة، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر.

لا تيأس

إن كان قد اعتراك فتور سببه لك طول الطريق، أو يأس من الوصول مرده كثرة العقبات أوصيناك وقلنا:

لا تستوحش لقلة السالكين ولا تغتر بكثرة الهالكين.

كان **عبد الله بن المبارك** عالم زمانه وأمير الأتقياء فى وقته، وكان إذا أقام فى بلده يكثر الجلوس فى بيته فقيل له: ألا تستوحش؟ قال: «كيف أستوحش وأنا مع النبى ﷺ وأصحابه» [(١)]، ولما قيل له: إذا أنت صليت لم لا تجلس معنا؟ قال: «أجلس مع الصحابة والتابعين أنظر فى كتبهم وآثارهم فما أصنع معكم؟ أنتم تغتابون الناس» [(٢)].

«وكلما استوحشت فى تفردك فانظر إلى الرفيق السابق واحرص على اللحاق به، وغض الطرف عمن سواهم فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئًا وإذا صاحوا بك فى طريق سيرك فلا تلتفت إليهم فإنك متى التفت إليهم أخذوك وعاقوك» [(٣)].

والمتلفت لنعيق الهالكين كالظبى «والظبى أشد سعيًا من الكلب ولكنه إذا أحس به التفت إليه فيضعف سعيه فيدركه الكلب» [(٤)].

ولنأخذ الدرس من هذا الأعرابى الذى ما نقل لنا الرواة اسمه، لكن ذلك لا يضرنا إذا فهمنا فهمه، مرّ **عمر بن الخطاب** ـ رضى الله عنه ـ بهذا الأعرابى فسمعه يقول: اللهم اجعلنى من الأقلين!! فقال: يا عبد الله وما الأقلون؟ قال: أما سمعت الله تعالى يقول: **﴿وما آمن معه إلا قليل﴾**، ويقول: **﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ**

---

(١) سير أعلام النبلاء (٨/ ٣٣٩).
(٢) السابق (٨/ ٣٥٣).
(٣) تهذيب مدارج السالكين ص (٣١).
(٤) السابق ص (٣١).

الشَّكُورُ﴾، فقال عمر: كل الناس أفقه منك يا عمر.

والآن اسرج جواد الخير لتقفز به فوق العقبة الأخيرة وهى

العقبة الرابعة:

اتباع الهوى

عرّف **ابن الجوزى** الهوى فقال: «الهوى ميل الطبع إلى ما يلائمه، وهذا الميل قد خلق فى الإنسان لضرورة بقائه، فإنه لولا ميله إلى المطعم ما أكل، وإلى المشرب ما شرب، وإلى المنكح ما نكح، وكذلك كل ما يشتهيه، فالهوى مستجلب له ما يفيد، كما أن الغضب دافع عنه ما يؤذى، فلا يصلح ذم الهوى على الإطلاق، وإنما يذم المفرط من ذلك، وهو ما يزيد على جلب المصالح ودفع المضار» [(١)].

والمفرط من الهوى: كأن يميل الإنسان إلى ما يبغض الله وأن ينفر عما يحب الله، ولذا وجه الله داود فقال: **﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾** [ص:٢٦]، ومدح من خالف هواه فقال: **﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾** [النازعات:٤٠]، وذم من تابع هواه فقال: **﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾** [الأعراف:١٧٦].

وفى تعريف بليغ لاتباع الهوى يقول **الشعبى**: «إنما سمّى الهوى هوى لأنه يهوى بصاحبه فى النار» [(٢)]، أى أنه مشتق من السقوط فالذى يتمكن منه الهوى، ويخالف أوامر الكتاب والسنة ووصايا الصالحين لن تراه إلا فى تعثر ووقوع يكبه على وجهه، ليس فى الدنيا فحسب بل فى جهنم وبئس المصير.

---

(١) ذم الهوى ص (١٨).

(٢) تفسير القرطبى ص (٥٩٨٧).

أغـــــلال الهــــوى

والهوى أسر هكذا فـهمه الأحرار، ومع ذلك يقع الناس فيه مـرة بعد أخرى، لكن الأحرار يأبون الذل، ويرفضون الضيم فيكسرون هذا القيد، ويقيدون أنفسهم بقيـد يمنع الانفلات إلى الهوى وهو ليس بقـيد، إنما هو محض ارتبـاط بالله وأمره ونهيه، أمران لا ثالث لهما إذن: ارتباط بالله أو تعلق بالشهوات.

والقلب ما لم يكن بالله مرتبطًا ... فإنمـــا هـو بالأهواء جوّاب [١]

سئل ابن المقفع عن الهوى فـقال: هوان سـرقت نونه، فأخـذه شاعر فـنظمه وقال:

نون الهوان من الهوى مسروقة ... فإذا هــويت فقد لقــيت هوانًا

والمجاهد عند ابن الجوزى هو من جاهد هواه، قـال رحمه الله: «رأيت الخلق كلهم فى صف مـحاربة والشـياطين يرمـونهم بنبل الهوى، ويضـربونهم بأسـياف اللذة، فأما المخلطون فصرعى من أول وقت اللقاء، وأما المتـقون ففى جهد جهيد من المجـاهدة، فلابد مع طول الـوقوف فى المعـركة مـن جراح، فـهم يجرحـون ويداوون إلا أنهم من القتل محفوظون، بلى إن الجراحة فى الوجه شين، فليحذر ذلك المجاهدون» [٢].

هؤلاء المجـاهدون يرفع الله ذكرهم فى الدنيـا والآخرة فـيذكـرهم أهل الأرض ويتباهى بهم أهـل السماء، وانظر إلى يوسف ـ عليه السـلام ـ وتأمل.. لو وافق هواه من كان يكون؟ فلما خالفه خلد الله ذكـره بسورة فى القرآن تحمل اسمه تتلى صباح مـساء، وضرب به المثل فى الصبـر عن الشهوات، وانتصب قـدوة على مر العصور والأزمان، ومثلاً يحـتذى به لمن آثر رضا ربه على موافقة هواه، بل ملّكه الله الدنيا قبل الآخرة جزاء ما قدمت يداه، ومـثوبة له على مخالفته هواه، وجعل

---

(١) العوانق لمحمد أحمد الراشد ص (٤٨، ٤٩) بتصرف يسير .

(٢) صيد الخاطر ص (١٤٦، ١٤٧) .

ذلك لكل من سار بعده على نهـجه، قال **أبو على الدقاق**: «من ملك شهوته فى حال شبيبته صيره الله ملكًا فى حال كهولته كيوسف ـ عليه السلام ـ: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف : ٩٠]» (١).

وبالعكس منه آدم ـ عليه السلام ـ فى موافقته لهواه، فقد كانت هذه نقيصة فى حقـه لا ينساها أبدًا، حتى أنه ليـذكرها يوم القيـامة حين يأتى إليـه الناس يطلبون شفاعته «فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسـمـاء كل شىء، فاشـفع لنا عند ربـك، حتى يريحـنا من مكاننا هذا، فيقول لهم آدم: لست هناكم، ويذكر ذنبه الذى أصابه، فيستحيى ربه عَزَّ وجَلَّ من ذلك»(٢).

فالمح مرتقى الصبر وهاوية الهوى وميّز بينهما ثم اختر لنفسك ما شئت.

معشر المتسابقين

لا ترجعوا إلى الرضاع من الهوى بعـد الفطام، فالرضاع للأطفال لا للرجال، ولابد من الصبر على مرارة الفطام، فإن صبرتم كوفئتم بحلاوة الإيمان بديلاً عن لذة الهـوى. قال تعـالى: ﴿إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٠].

وقال ﷺ: «من كـتم غيظًا وهو قادر على أن ينفـذه دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يخيّره من الحور العين، يزوّجه منها ما شاء» (٣).

(١) ذم الهوى ص (٣٢) .
(٢) رواه البخارى ومسلم والنسائى وأحمد عن أنس كما فى ص ج ص رقم (٧٨٨٢) .
(٣) رواه أصحاب السنن الأربعة وأحمد وأبو نعيم، وحسنه الألبانى فى ص ج ص رقم (٩٣٣٤) .

رب جرح كان في مقتل

ومضار الهوى كثيرة، منها أنه:

*** يصد عن الحق:**

فترى متبع الهوى يوعظ بما فيه خيره ونفعه فيصرفه هواه عن اتباع الحق، وإن علم أن فيه نجاته.

إذا اعتادت النفس الرضاع من الهوى ... فإن فطام النفس عنه شديد

هلال الهدى لا يظهر بين غيوم الهوى، إنما يلوح لمن فى الأسحار قام وللصيام نوى، ونجوم الصلاح لا يراها من آثر النوم واستراح، بل يهتدى بها من هفا قلبه إلى نداء حى على الفلاح.

*** ينتكس بالفطرة:**

فلا تعود تعرف معروفًا، أو تنكر منكرًا، فتأنس بالمعصية وتألف الخطيئة، وصدق **ابن القيم** أيما صدق حين قال: «ولو عطل المجرم المعصية وأقبل على الطاعة، لضاقت عليه نفسه، وضاق صدره، وأعيت عليه مذاهبه، حتى يعاودها، حتى إن كثيرًا من الفساق ليواقع المعصية من غير لذة يجدها، ولا داعى إليها، إلا لما يجد من الألم بمفارقتها» (١). قال الشاعر يصف حال هذا المسكين:

وكأس شربت على لذة ... وأخرى تداويت منها بها

*** يفسد العقل:**

اتباع الهوى يفسد العقل، بل يدمره، فيتساوى بذلك الذى يتبع هواه مع البهائم قال تعالى: **﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾** [الأنفال: ٢٢]، هذا فى الدنيا، أما فى الآخرة فالبوار والتصايح فى النار **﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾** [الملك: ١٠].

---

(١) الداء والدواء ص (٨٨) - ابن قيم الجوزية - ط دار الفرقان.

قال بعض السلف: «ما عصى الله أحد حتى يغيب عقله، وهذا ظاهر، فإنه لو حضره عقله لحجزه عن المعصية، وهو فى قبضة الرب تعالى، وتحت قهره، وهو مطلع عليه، وفى داره، وعلى بساطه، وملائكته شهود عليه ناظرون إليه، وواعظ القرآن ينهاه، وواعظ الإيمان ينهاه، وواعظ النار ينهاه، والذى يفوته بالمعصية من خير الدنيا أضعاف ما يحصل له من السرور واللذة بها، فهل يقدم على الاستهانة بذلك كله والاستخفاف ذو عقل سليم؟!» (١).

ويوجه عبد الله بن عباس صيحة تنبيه إلى متبع الهوى ويصرخ فيه:

«يا صاحب الذنب لا تأمنن سوء عاقبته، ولما يتبع الذنب أعظم من الذنب إذا علمته: قلة حيائك ممن على اليمين وعلى الشمال وأنت على الذنب أعظم من الذنب، وضحكك وأنت لا تدرى ما الله صانع بك أعظم من الذنب، وفرحك بالذنب إذا ظفرت به أعظم من الذنب، وحزنك على الذنب إذا فاتك أعظم من الذنب إذا ظفرت به، وخوفك من الريح إذا حركت ستر بابك وأنت على الذنب ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك أعظم من الذنب إذا عملته» (٢).

* يؤدى إلى تراكم العيوب :

لأن الهوى يورث النفس الغفلة عن عيوبها، ويعمى البصيرة عن آفاتها، فيستأنس صاحب الهوى بالذنب، ويستلذ بالخطيئة، وفى المقابل ينفر من الطاعة ويضجر من النصيحة، ويحبسه جند الهوى فى قبو الشهوات، فلا يعود يرى العيوب والآفات، وكيف يراها فى غياب أنوار الطاعات التى تسطع من شموس القدوة وبدور الهداية؟!

إن المرآة لا تريك ... عيوب وجهك مع صداها
وكذاك نفسك لا تريك ... عيوب نفسك مع هواها

---

(١) السابق ص (٩٢).
(٢) ذم الهوى ص (١٤٨، ١٤٩).

نــــــداء

يا من فاته رفقة من ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾، وحرم وسام ﴿والمستغفرين بالأسحار﴾، وغفل عن داء ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾، وما طلب دواء ﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾، فـهو فى أجـواء الهـوى يسرح، وفى سـاحـات الغى يمرح، هند بهواها رمته فى الهند، وليلى بحسنها أطارت عقله ليلاً، وسحر أقلقته فى السحر، اسمع منا يا مـبتلى: إذا غـرق القلب فى المباح أظلم فكيف بالحـرام؟!! وإذا غيّر الورد الماء منه من التوضؤ به فكيف بالنجاسة؟!! أنَّى لمزكوم هوى أن يستنشق نسيم سحر!! وأنى لعاشق طين أن يحظى بحور عين!!.

يا هذا.. تزعم أن الآخرة همك! ﴿كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾، وتظن أن لك صبرًا على النار! ﴿كَلاَّ إِنَّهَا لَظَىٰ﴾، وتعجب من كثرة بلاياك وانغلاق الأبواب أمام وجهك وتسأل ما السبب؟ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾.

أما وقد علمت هذا فـدع عنك التغنى بأشعار الهـوى، وانشغل بترتيل ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾، وكن ممن أجاب الـنداء وكسر القـيد، فـحلّق عاليـا مع الهمم العـالية والعزائم الماضية تاركًا خلفه الدنيوى مستأسرًا لشهوة تُذله، أو هوى يُضله.

فإن فعلت كنت الرابح فى سـوق الآخرة، ولا يعود يجمعك بالبـشر إلا صورة اللحم والدم، أمـا روحك وفكرك ولذتك وألمك فأنت فـيها خلـق جديد وأنموذج فريد.

أنمـــوذج :

* كلمة الطمع فى قامـوسه ليس معناها الاغتـراف من الملذات والشهوات، بل معناها السعى الحثيث فى تحصيل الثواب وكسب الحسنات.

* واللهو عنده ليس لهو الفـارغين والعابثين بل لهو المجدين بالسبـاحة والرماية وركوب الخيل كما أوصى الفاروق أمير المؤمنين.

* فإن رقص أو تبختر فليس رقص المخنثين وأشباه الرجال على ترانيم الموسيقى

وألحان الغناء، وإنما رقص على أشلاء الأعداء في ساحات الوغى وميادين الفداء، وتبختر يغيظ الكافرين تعلمه من أبى دجانة صاحب العصابة الحمراء وأستاذ العزة والإباء.

* ومسامراته مع رفاقه ليست حول أحدث خطوط الموضة وآخر صيحات الأزياء إنما هى مدارسة حول أسباب الداء وطرق العلاج والدواء.

هذا هو الرابح عندنا: صناعة لا تقبل التقليد وطابع لا يزيف، وفى الآخرة وأمام من لا تخفى عليه خافية ينكشف الغطاء، وينجلى الخفاء، ويعرف من بكى ممن تباكى.

ابن رجب يتعجب

ويقول: «ابن آدم لو عرفت قدر نفسك، ما أهنتها بالمعصية، أنت المختار بين المخلوقات، ولك أعدت الجنة إن اتقيت، فهى إقطاع المتقين، والدنيا إقطاع إبليس، فكيف رضيت نفسك بالإعراض عن إقطاعك، وزاحمت إبليس على إقطاعه، وأن تكون غدا فى النار من جملة أتباعه، إنما طردناه عن السماء لأجلك حين تكبر عن السجود لأبيك، وطلبنا قربك، لتكون من خاصتنا وحزبنا فعاديتنا! وواليت عدونا ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ [الكهف: ٥٠]» [1].

يا مكار

ويبعثها لك الحارث المحاسبى ليهتك الأستار عن كل مخادع مكار:

«اعلم أن كل عقل لا يصحبه ثلاثة أشياء فهو عقل مكار (مخادع):

(١) إيثار الطاعة على المعصية.

(٢) إيثار العلم على الجهل.

(٣) إيثار الدين على الدنيا» [2].

---

(١) لطائف المعارف ص (١٨٣).

(٢) رسالة المسترشدين للحارث المحاسبى ص (٩٧).

فيا من عانق هواه عناق الألف للام، إليك نرسل هذه الأبيات:

النفس تبكى على الدنيا وقـد علمت ... أن السلامة فيها ترك ما فيها
لا دار للمرء بعـد المـوت يسكنها ... إلا التى كان قبل الموت يبنيها
فإن بناها بخير طاب مسكنها ... وإن بناها بشرٍ خاب بانيها
أموالنا لذوى الميراث نجمعها ... ودورنا لخراب الدهر نبنيها
كم من مدائن فى الآفاق قد بنيت ... أمست خرابًا وأفنى الموت أهليها
أين الملوك التى كانت مسلطنة ... حتى سقاها بكأس الموت ساقيها
لا تركنن إلى الدنيا فالموت ... لا شك يغنينا ويغنيها
واعمل لدار غدًا رضوان خازنها ... والجار أحمد والرضوان بانيها
قصورها ذهب والمسك طينتها ... والزعفران حشيش نابت فيها
أنهارها لبن مصفى ومن عسل ... والخمر يجرى رحيقا فى مجاريها
والطير تجرى على الأغصان عاكفة ... تسبح الله جهرًا فى مغانيها
فمن يشترى الدار فى الفردوس يعمرها ... بركعة فى ظلام الليل يحييها

ثالثا: أن تنفذ الوصايا العشر

هذه عشر وصايا ما من متسابق عمل بهن إلا حاز شرف القرب، وذاق حلاوة الوصل، وأوشك على إدراك خط النهاية، أما من ضيعهن استخفافًا بهن أو انشغالاً عنهن فقد فاته خير النعم، وعانى زلل القدم، وبات يتقلب على فراش الحسرة والندم.

قد لا يستغرق قراءة كل وصية غير دقيقة واحدة لكن تعويد النفس على تنفيذ هذه الوصايا يستغرق أكثر من ذلك بكثير، فاستعن بالله فهو نعم المعين وعليه الاعتماد والتكلان.

(١) ابدأ بالأساس :

ونقصد بالأساس الفرائض، وبنيان بلا أساس كجيش بلا حراس، وجسد بغير رأس، فهى أحب الأعمال إلى الله حيث يقول النبى ﷺ فى الحديث الذى يرويه عن رب العزة: «وما تقرب إلىَّ عبدى بشىء أحب إلىَّ مما افترضته عليه» [١]، وقد كانت آخر كلمات يلهج بها **أبو بكر الصديق** قبل موته حيث قال: «إن الله لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة» [٢].

ويمضى موكب الرشد يقوده بعد الصديق **عمر بن الخطاب** الذى كان يتفقد بنفسه تنفيذ هذه الوصية فى الرعية دون أن تشغله أعباء الخلافة ومشاكل الحكم عن ذلك، فقد يوما سليمان بن أبى حثمة فى صلاة الصبح وفى اليوم التالى غدا إلى السوق وكان مسكن سليمان بين السوق والمسجد النبوى، فلقى عمر الشفاء أم سليمان فقال لها: لم أر سليمان فى الصبح، فقالت: إنه بات يصلى فغلبته عيناه، قال عمر: «لأن أشهد صلاة الصبح فى جماعة أحب إلى من أن أقوم ليلة» [٣].

وقد أماط **ابن الجوزى** اللثام عن هذه الحيلة الماكرة لإبليس فى كتابه القيم تلبيس إبليس فقال: «وقد لبّس إبليس على جماعة من المتعبدين، فأكثروا من صلاة الليل وفيهم من يسهره كله، ويفرح بقيام الليل وصلاة الضحى أكثر مما يفرح بأداء الفرائض، ثم يقع قبيل الفجر فتفوته الفريضة، أو يقوم فيتهيأ لها فتفوته الجماعة، أو يصبح كسلان فلا يقدر على الكسب لعائلته» [٤].

وليس هذا فى أمر الصلاة فحسب، وإنما فى سائر الأعمال، دعونا نستمع إلى ابن الجوزى وهو يكمل سرد مشاهداته فيقول: «رأيت كثيرًا من الناس يتحرزون من رشاش النجاسة ولا يتحاشون عن غيبة، ويكثرون من الصدقة ولا يبالون

---

(١) رواه البخارى فى الرقاق رقم (٦٠٢١) .
(٢) مختصر منهاج القاصدين ص (٤٩٢) .
(٣) رواه مالك فى الموطأ رقم (٢٩١) - ط دار الكتب العلمية .
(٤) تلبيس إبليس ص (١٤٨، ١٤٩) - ابن الجوزى - ط مكتبة الإيمان - المنصورة .

بمعاملات الربا، ويتهجدون بالليل ويؤخرون الفريضة عن الوقت فى أشياء يطول عدها من حفظ فروع وتضييع أصول»[(١)].

فلا تكن ممن طلب الربح وقد أضاع رأس المال، فصفة هذا أنه يسيء ويظن أنه محسن، يظلم ويحسب أنه عادل، يأكل الحرام ويرى أنه متورع، ومثله يبذر ولا يحصد، ويجنى ولا يأكل، فالحذر.. الحذر أن تسلك طريقه فيكتب اسمك فى سجلات ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤].

(٢) القليل الدائم:

قالت عائشة تصف حال رسول الله ﷺ: «كان أحب العمل إليه ما دووم عليه وإن قل» [(٢)].

ويوضح المناوى السبب فى ذلك فيقول: «لأن النفس تألفه فيدوم بسببه الإقبال على الحق، ولأن تارك العمل بعد الشروع كالمعرض بعد الوصل، ولأن المواظب ملازم للخدمة، وليس من لازم الباب كمن جدّ ثم انقطع عن الأعتاب»[(٣)].

وحين نظر أبو الحسن الماوردى من خلال عدسته المكبرة إلى هذه الظاهرة رأى بوضوح أن «الاستكثار من الزيادة:

أ- إما أن يمنع من أداء اللازم فلا يكون إلا تقصيرًا لأنه تطوع بزيادة أحدثت نقصًا، وبنفل منع فرضًا.

ب- وإما أن يعجز عن استدامة الزيادة، ويمنع من ملازمة الاستكثار، من غير إخلال بلازم ولا تقصير فى فرض، فهى إذن قصيرة المدى قليلة اللبث.

وقليل العمل فى طويل الزمان أفضل عند الله من كثير العمل فى قليل الزمان،

---

(١) صيد الخاطر ص (١٢٥، ١٢٦).

(٢) رواه الترمذى والنسائى عن عائشة وأم سلمة كما فى ص ج ص رقم (٤٥٠٦).

(٣) فيض القدير (١/ ١٦٥).

لأن المستكثر من العمل فى الزمان القصير قد يعمل زمانًا ويترك زمانًا، فربما صار فى زمان تركه لاهيا، أو ساهيًا، والمقلل فى الزمان الطويل مستيقظ الأفكار مستديم التذكار» (١).

هذه وصية ثمنية لأن من شراك الشيطان التى ينصبها للإنسان: أن يستغل قوة الانطلاق التى بدأ بها المتسابق سباقه، فيحمله من الأحمال والأثقال ما يقعده ويحبسه عن إكمال الطريق، فيرجع من حيث أتى، ومثل هذا المتسابق لم يعلم أن سباقنا لا يعرف أسلوب الطفرة، وإنما هو ارتقاء مدارج السالكين درجة درجة، وسلوك طريق عكاشة خطوة خطوة، ومعنى هذا: استكمال الفرائض أولاً، ثم من بعد الفرائض تستكمل النوافل نافلة نافلة فى ارتقاء متأنٍ مع ثبات راسخ، هذا هو نهج النبى ﷺ حيث «كان إذا عمل عملاً أثبته» (٢).

أما من أبى إلا المخالفة فيُخشى عليه الفترة بعد المجاهدة، والقعود بعد النشاط، ولهذا كانت وصية النبى ﷺ لعبد الله بن عمرو: «يا عبد الله لا تكن مثل فلان، كان يقوم من الليل فترك قيام الليل» (٣).

(٣) انس نفسك :

ولسنا نعنى بذلك إهمالها وترك تهذيبها، ولكننا نعنى بابًا من أبواب الخير الوفير غفل عنه أكثر المتسابقين، فانصرفوا إلى طاعات لا يتعدى نفعها أنفسهم كقيام الليل وصيام التطوع وغيرهما من النوافل، تاركين خلف ظهورهم طاعات يتعدى نفعها النفس إلى الغير، مع أنها قد تكون أوفر أجرًا وأعظم ربحًا وأثقل فى ميزان الله، بل قد تصل إلى درجة فروض الأعيان، وانظر معى فى هذا الحديث وتأمل فيما تحته خط:

قال النبى ﷺ: «من أبواب الصدقة التكبير، وسبحان الله والحمد لله ولا إله

(١) أدب الدنيا والدين ص (١٣٠) - أبو الحسن الماوردى - ط المكتبة القيمة .
(٢) رواه مسلم وأبو داود كما فى ص ج ص رقم (٤٦٣٢) .
(٣) رواه الشيخان وأحمد والنسائي عن ابن عمرو كما فى ص ج ص رقم (٧٨٢٢) .

إلا الله والله أكبر، وأستغفر الله، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويعزل الشوك عن طريق الناس، والعظم والحجر، وتهدى الأعمى، وتسمع الأصم والأبكم حتى يفقه، وتدل المستدل على حاجة له قد علمت مكانها، وتسعى بشدة ساقيك إلى اللهفان المستغيث، وترفع بشدة ذراعيك مع الضعيف، كل ذلك من أبواب الصدقة منك على نفسك» (١).

ثم قارن بين ما خُطَّ تحته خط وما لم يخط، أى قارن بين طاعات متعدية النفع تخدم الجماعة وطاعات فردية لا ينتفع بها غير صاحبها، واعقد نسبة مئوية قدّر على أساسها أهمية هذه الوصية.

وكأن رسول الله ﷺ يريد أن يقول: هذه أبواب كثيرة للخير لا يلتفت إليها الكثيرون، فاذكروها ولا تهملوها واعملوا بها سواء بسواء مع التسبيح والتحميد والتهليل، ولاحظ أنه لم يستطرد فى سرد الطاعات الفردية لأن الكل يعرفها ويعمل بها، لكنه طرق الأبواب المغلقة وأرشد إلى العبادات المهجورة.

ولهذا كانت وصيتنا: انس نفسك واذكر غيرك ولو كان كلبًا، فإنك إن فعلت غفر لك ذنبك مهما عظم، فقد غفر الله لمومسة بذلك، فكيف لا يغفر لك؟ قال ﷺ: «غُفر لامرأة مومسة من بنى إسرائيل، مرت بكلب ركىّ يلهث كاد يقتله العطش، فنزعت خُفها، فأوثقته بخمارها، فنزعت له من الماء فغفر لها بذلك» (٢).

بل إن نسيان الغير وغلظة معاملتهم لهو باب من أبواب النار، ولو كان هذا الغير هرّة. قال النبى ﷺ: «دخلت امرأة النار فى هرّة ربطتها فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض» (٣).

---

(١) رواه أحمد والنسائى وابن حبان عن أبى ذر كما فى ص ج ص رقم (٣٩٢٦).

(٢) رواه البخارى عن أبى هريرة كما فى ص ج ص رقم (٤٠٣٩).

(٣) رواه الشيخان وأحمد عن أبى هريرة والبخارى عن ابن عمر كما فى السلسلة الصحيحة رقم (٢٨).

فليكن اسمك نداء النجدة للمستغيثين..

وليكن قلبك مرفأ الراحة للمكروبين..

وليكن بيتك مصنع السعادة للحزانى والبائسين

(٤) الاستثمار الرابح :

قال ﷺ: «سبع يجرى للعبد أجرهن وهو فى قبره بعد موته: من علّم علما، أو أجرى نهرًا، أو حفر بئرًا، أو غرس نخلاً، أو بنى مسجدًا، أو ورث مصحفًا، أو ترك ولدًا يستغفر له بعد موته» (١).

كل الناس تطوى صحائفهم بعد موتهم إلا هؤلاء النفر الذين جاء ذكرهم فى الحديث، فيظل عملهم ينمو وموازينهم تثقل إلى أن تقوم الساعة ويرث الله الأرض ومن عليها.

كل هذه الأعمال استثمارات رابحة يطول أمدها ويستمر عطاؤها، فيحيا المتسابق وهو ميت، ويبقى بها وربما لم يبق من جسده شىء، وتوزع أرباحها فى يوم يجازى فيه الناس أعمالهم بمثاقيل الذر: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧]، ووقتها يعلم الغافلون عن هذه الوصية قدرها ولكن بعد فوات الأوان.

(٥) تنويع فنون الحسنات :

ذلك أن النفس ملولة لا تحب لونًا واحدًا، بل تميل إلى التغيير وتضجر من الرتابة، من أجل هذا وجب التنويع مع حفظ الفرائض وعدم تضييعها بالطبع، واذكر إن نسيت الوصية رقم (١).

ونضرب لذلك مثلين:

أ ـ كلنا يعلم مثلاً أنه ما من دواء يحيى القلب ويلين قسوته أكثر من ذكر الموت، لكن النبى ﷺ يصف لنا دواءً جديدًا سيرًا على مبدأ التنويع فيقول:

---

(١) رواه البزار وسمويه عن أنس، وحسنه فى ص ج ص رقم (٣٥٩٦) .

«أتحب أن يلين قلبك وتدرك حاجتك؟ ارحم اليتيم وامسح رأسه وأطعمه من طعامك يلن قلبك وتدرك حاجتك» (١).

ب ـ أخبر النبي ﷺ عن سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله فذكر فيهم: «إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله فاجتمعا على ذلك وافترقا عليه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله رب العالمين، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» (٢).

لكنه في حديث آخر يخبرنا أن الأمر ليس مقصورًا على هؤلاء السبعة فحسب بل في التنويع معالجة لملل النفس وتوسيع لدائرة العفو. قال ﷺ: «من أنظر معسرًا، أو وضع عنه أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله» (٣).

(٦) الدال على الخير كفاعله: (٤)

وصية عظيمة إن عملت بها حزت قصد السبق، عمل مَنْ دعوته بما قلت أم لم يعمل، لأن الأجرة تعطى على الدعوة لا على الثمرة.

والدعاة إلى الله أعلى الخلق درجة، وهم ورثة الأنبياء ومصابيح الهدى في دياجير الظلام، بهم يُرشد الضال، ويُهدى الحيران، ويُغاث اللهفان، ويوقظ النائم، وينشط الكسلان، ويقوم المعوج، ويهدأ المضطرب، ويبرأ السقيم، ويشفى العليل، فما أشرفها من مهمة وما أعظمها من غاية ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

(١) رواه الطبراني عن أبي الدرداء كما في السلسلة الصحيحة رقم (٨٥٢).
(٢) رواه الشيخان ومالك عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم (٣٥٩٧).
(٣) رواه أحمد ومسلم عن أبي اليسر كما في ص ج ص رقم (٥٩٨٢).
(٤) رواه البزار عن ابن مسعود والطبراني عن سهل بن سعد كما في السلسلة الصحيحة رقم (١٦٦٠).

ومن هذه الصفوة المباركة كان **سعد بن معاذ** الذى كان فى الأنصار بمنزلة أبى بكر فى المهاجرين كما يقول ابن القيم. عرض عليه مصعب بن عمير الإسلام فأسلم، وفور إسلامه رجع إلى قومه ينفذ الوصية. قال: «يا بنى عبد الأشهل كيف تعلمون أمرى فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيا وأيمننا نقيبة، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم علىّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، فما أمسى فيهم رجل ولا امرأة إلا مسلمًا ومسلمة» (١).

ولهذا استحق مكافآت ثمينة أعلن عنها رسول الله ﷺ فقال: «هذا العبد الصالح الذى تحرك له العرش، وفُتحت أبواب السماء، وشهده سبعون ألفًا من الملائكة لم ينزلوا الأرض قبل ذلك» (٢).

ولما حُملت جنازته قال المنافقون: ما أخفها، قال النبى ﷺ: «إن الملائكة كانت تحمله» (٣)، ولما أُهدى للنبى ﷺ حُلة حرير جعل الصحابة يمسونها ويعجبون من لينها، فقال النبى ﷺ: «أتعجبون من لين هذه؟!! لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة خير منها وألين» (٤).

(٧) سبق درهم مائة ألف درهم:

ويبين النبى ﷺ السر فى ذلك فيقول: «رجل له درهمان أخذ أحدهما فتصدق به، ورجل له مال كثير فأخذ من عرضه مائة ألف فتصدق بها» (٥).

ذلك أن النوع أهم من الكم، فمن قسم ماله شرطين وتصدق بالنصف لا شك أنه كان أحوج إلى ما تصدق به ممن تصدق بمائة ألف من عرض ماله، وبقى له أضعاف أضعاف ما تصدق به، ولهذا كان «أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح

(١) الرحيق المختوم ص (١٧٢) - صفى الدين المباركفورى - ط دار الرحمة.
(٢) رواه النسائى وابن سعد وأحمد عن ابن عمر وإسناده صحيح.
(٣) رواه الترمذى فى المناقب عن أنس رقم (٣٧٨٣)، وقال: حديث صحيح.
(٤) رواه الشيخان عن البراء كما فى اللؤلؤ والمرجان رقم (١٦٠٤) واللفظ للبخارى.
(٥) رواه النسائى عن أبى ذر وابن حبان والحاكم عن أبى هريرة، وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب رقم (٨٧٥).

شحيح، تأمل الغنى وتخاف الفقر» [(١)].

عمر بن الخطاب كان ممن نفّذ الوصية فكان صاحب هذا الدرهم الذى سبق مائة ألف. عمد فى غزوة تبوك إلى نصف ماله ليتصدق به قائلاً: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته، لكن صاحب النبى ﷺ فى الغار يغار، ويأبى أن يسبقه أحد فيتصدق بماله كله عن طيب نفس لأن من حاز شرف ﴿ ثَانِيَ اثْنَيْنِ ﴾ لا يأسى على دفع درهمين، ولأن من بذل روحه هان عليه بذل ماله، فيجيب **أبو بكر** النبى ﷺ حين يسأله: يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك؟ يقول: أبقيت لهم **الله** ورسوله، ولا يملك عمر إزاء هذا إلا أن يقر بالفضل لأبى بكر ويقول: لا أسبقه إلى شىء أبدًا.

(٨) فرصة للتعويض:

قال النبى ﷺ: «من نام عن حزبه، أو عن شىء منه، فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنما قرأه من الليل» [(٢)].

والأمثلة على ذلك كثيرة منها قول النبى ﷺ: «من نام عن وتره فليصل إذا أصبح» [(٣)]، وقوله: «من لم يصل ركعتى الفجر فليصلهما بعدما تطلع الشمس» [(٤)]، ولما رأت أم سلمة النبى ﷺ يصلى ركعتين بعد العصر وسألته عن ذلك أجابها وقال: «يا ابنة أبى أمية: سألت عن الركعتين بعد العصر، وإنه أتانى ناس من عبد القيس فشغلونى عن الركعتين اللتين بعد الظهر فهما هاتان» [(٥)].

وقد ذكر **ابن القيم** فى صيام النبى ﷺ فى شعبان أكثر من غيره ثلاثة أوجه منها أنه كان يصوم ثلاثة أيام فى كل شهر فربما شغل عن الصيام أشهرًا، وجمع ذلك فى شعبان ليدركه قبل صيام الفرض (رمضان)، وكان النبى ﷺ يعتكف العشر

---

(١) رواه الشيخان وأحمد عن أبى هريرة كما فى ص ج ص رقم (١١٢٢).
(٢) رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى كما فى صحيح أبى داود رقم (٦٦١).
(٣) رواه الترمذى عن زيد بن أسلم مرسلاً، وصححه الألبانى فى الإرواء رقم (٤٢٢).
(٤) رواه أحمد والترمذى عن أبى هريرة كما فى ص ج ص رقم (٦٤١٨).
(٥) رواه البخارى وأبو داود كما فى ص ج ص رقم (٧٧٧٢).

الأواخر من رمضان (فلما فاته الاعتكاف مرة لعارض سفر اعتكف فى العام المقبل عشرين يومًا) [١].

(٩) احـــذر النسّافات :

أى التى تنسف العـمل وتبعـثر الأجر، والمحـصلة عناء بغير جزاء وتعب بغير ثواب. قال النبى ﷺ: «لأعلمن أقوامًا من أمتى يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضاء، فيجعلها الله هباء منثوراً، أما إنهم إخوانكم ومن جلدتكم ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم قوم إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها» [٢].

هل عرفت إذًا ما هى النسّافات؟ إنها ذنوب الخلوات لا تبقى طاعة للإنسان ولا حسنة فى الميزان إلا نسفتها، وإذا كان العدل أن توافق السريرة العلانية، والجور أن تكون السريرة أخبث من العلانية، فإن الفضل أن تكون السريرة أفضل من العلانية، ومن أهل الفضل كان **الإمام أحمد**.

سأله أبو حامد الخلفانى يومًا فقال: يا أبا عبد الله. هذه القصائد الرقاق التى فى ذكر الجنة والنار أى شىء تقول فيها؟ فقال: مثل أى شىء؟ قلت: يقولون:

إذا ما قال لى ربى   أما استحييت تعصينى
وتخفى الذنب عن خلقى   وبالعصيان تأتينى

فقال: أعد علىّ، فأعدت عليه، فقام ودخل بيته ورد الباب فسمعت نحيبه من داخل البيت وهو يقول:

إذا ما قال لى ربى   أما استحييت تعصينى
وتخفى الذنب عن خلقى   وبالعصيان تأتينى

يأبى بذلك أن يُصرف عن باب أهل الفضل، وكيف يُصرف وأحمد ممنوع من الصرف؟!

فماذا كان ثوابه لقاء فضله؟

(١) فتح البارى (٤/ ٢٨٥).
(٢) رواه ابن ماجه عن ثوبان كما فى ص ج ص رقم (٤٩٠٤).

أ ـ ثوابه فى الآخرة لا يعلم به أحد، لأن الجزاء من جنس العمل. . أخفى صالح عمله عن الناس فى الدنيا فأخفى الله عظيم ثوابه عن الناس فى الآخرة ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

ب ـ أما ثوابه فى الدنيا فأكثر من أن يحصى، وإن لم يكن إلا أنه كان مستجاب الدعوة لكفى. قال على بن أبى حرارة: «كانت أمى مقعدة نحو عشرين سنة، فقالت لى يومًا: اذهب إلى أحمد بن حنبل فسله أن يدعو الله لى، فسرت إليه، فدققت عليه الباب، فقال: من هذا؟ فقلت: رجل من أهل هذا الجانب سألتنى أمى وهى زمنة مقعدة أن أسألك أن تدعو الله لها، فسمعت كلام رجل مغضب وقال: نحن أحوج أن تدعو الله لنا، فوليت منصرفًا فخرجت عجوز من داره فقالت: أنت الذى كلمت أبا عبد الله؟ قلت: نعم، قالت: قد تركته يدعو لها، قال: فجئت من فورى إلى البيت، فدققت الباب فخرجت أمى على رجليها تمشى حتى فتحت لى الباب وقالت: قد وهب الله لى العافية» (١).

وأنت أيها المتسابق

إن أردت أن تكون مستجاب الدعوة مثله فكن من أهل الفضل
فإن لم تكن فليس أقل من أن تكون من أهل العدل وحذار أن تكون
من أهل الجور فتعرض نفسك للنسّافات.

(١٠) بين الشرّة والفترة:

فى سفرتك الإيمانية، وجدّك واجتهادك قد تتعب أو تمل، فتفتر همتك، وتبرد حميتك، فهل تتوقف وتنسحب من السباق؟ أم ماذا تفعل؟

فى البداية لابد أن تعلم أن هذا أمر طبيعى يرجع إلىٰ طبيعة النفس البشرية، وقد أخبرنا النبى ﷺ بهذه الحقيقة: «إن لكل عمل شرَّة، ولكل شرَّة فترة، فمن كانت فترته إلى سنتى فقد اهتدى، ومن كانت إلى غير ذلك فقد هلك» (١).

---

(١) مناقب الإمام أحمد ص (٢٩٦) - ابن الجوزى - ط دار الآفاق الجديدة .

لكن سلوك الناس يتفاوت حيال هذه الفترة وينقسم إلى:

أ ـ اتباع لسنة الرسول ﷺ :

والتى يشرحها **عبد الله بن مسعود** كما فهمها من رسول الله ﷺ فيقول: «إن للقلوب شهوة وإقبالا، وإن للقلوب فترة وإدبارًا، فاغتنموها عند شهوتها وإقبالها، ودعوها عند فترتها وإدبارها» (٢).

فى حالة الإقبال : نزيد من النوافل، كصيام التطوع، وقيام الليل، وصدقة السر وغيرها.

فى حالة الإدبار : نلزم أنفسنا بالفرائض، فلا ننزل عن شيء منها، قد نترك النوافل، فتركها يحرمنا من الأجر ولا يوجب العقوبة، أما الفرائض فتركها يوجب العقوبة، فلنعض عليها بالنواجذ.

لا معنى إذن أن نسمع من متسابق أنه لا يصلى الفجر هذه الأيام لأنه فى حالة فتور، أو أنه لا يقرأ ورده من القرآن لأنه فى حالة فتور، فسنة النبى ﷺ التى شرحها لنا ابن مسعود هى أن تلزم نفسك بالفريضة حتى فى حالات الفتور، هذه سنة النبى ﷺ فاتبعها تهتدِ.

ب ـ اتباع لغير سنة الرسول ﷺ :

ويتمثل فى الانسحاب من **(سباق نحو الجنان)**، ثم تضييع الفرائض والغرق فى الشهوات، واتباع الأهواء عند حلول موسم الفتور، وهو ما عبَّر عنه الرسول ﷺ بالهلاك.

ليس معنى أن نُقرّ بأن الفتور طبيعة بشرية أن تغطّ فى نوم عميق، وتسمع وتطيع لهاتف الشيطان: «عليك ليل طويل فارقد»، ولكن كن خفيف النوم، ونم ـ إذا نمت ـ وسط الطريق لعل أحد إخوانك يوقظك عن قريب، وإياك والتفرد فإن

---

(١) رواه الإمام أحمد وابن حبان كما فى ص ج ص رقم (٢١٥٢) .

(٢) حياة الصحابة (٤/ ٣٤٢) نقلاً عن الحلية (١/ ١٣٤) .

فيه الهلكة، وارجع إلى واحات الإيمان وتزود منـها إن نفد زادك لتنطلق من جديد بعزم من حديد.

رابعا: أن تعرف أى العمل أفضل؟

إن معيار أفضلية الأعمال محدد بأربعة أمور رئيسة:

(١) مراعاة الأزمان:

فأفـضل الأعمـال فى رمضان القـيام لقـول النبى ﷺ: «من قام رمـضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه»[١]، والجود لأن النبى ﷺ «كان أجود ما يكون فى رمضان»[٢]، فإذا دخلت العشـر الأواخر فأفضل الأعـمال إلى الله الاعتكاف وعدم الخروج من المـسجد، فإذا أقبلت الـعشر الأولى من ذى الحجـة كان أفضل العمل إلى الله هو العمل الصالح ويسبق الجـهاد لقوله ﷺ: «إلا رجلاً خرج بماله وبنفسه فلم يرجع فيهما بشىء»[٣]، وأفضل الأعمال فى شهـر الله المحرّم وشعبان الصيام لقوله ﷺ: «وأفضل الصيام بعـد شهر رمضان شهر الله المحرم»[٤]، وقول عائشة ـ رضى الله عنها ـ: «ما رأيته فى شهر أكثر صيامًا منه فى شعبان»[٥].

وأفضل الأعـمال وقت تعليم الجاهل: الإقبـال على تعليمه والاشتـغال به عن غيره، وأفضل الأعمال وقت الوقوف بعرفـة: الاجتهاد فى التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المضعف عن ذلك.

وأفضل الأعمال فى الأسحار: الصلاة والاسـتغفار لقوله تعالى: ﴿والمستغفرين بالأسْحَارِ﴾ [آل عمـران:١٧]، وأفضل الأعـمال عند الإفطار: الدعـاء لقوله ﷺ:

---

(١) رواه الشيخان عن أبى هريرة كما فى ص ج ص رقم (٦٣١٦).
(٢) رواه البخارى والنسائى وأحمد عن ابن عباس.
(٣) رواه الجماعة إلا مسلم والنسائى واللفظ لأحمد.
(٤) رواه مسلم عن أبى هريرة والطبرانى عن جندب كما فى ص ج ص رقم (١١٢٧).
(٥) رواه البخارى ومسلم وأبو داود كما فى صحيح الترغيب والترهيب رقم (١٠١٤).

«ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حتى يفطر، ..»[١]، وأفضل الأعمال عند سماع الأذان: ترديده.

(٢) مراعَاة الأماكن :

فمن الأماكن ما يكون العمل فيه أفضل من غيره، كالصلاة فى المسجد الحرام تعدل مائة ألف صلاة فيما سواه، والصلاة فى المسجد النبوى تعدل ألف صلاة فيما سواه، والصلاة فى المسجد الأقصى تعدل خمسمائة صلاة فيما سواه.

وأفضل الصلاة صلاة المسجد هذا للمكتوبة، أما للنافلة فالأفضل البيت لقول النبى ﷺ: «فإن أفضل الصلاة صلاة المرء فى بيته إلا المكتوبة» [٢]، والذكر والدعاء عند الصفا والمروة أفضل من الصلاة، والطواف للقادم خير من الصلاة والعكس للمكى، والدعاء عند دخول المنزل، أو الخروج منه مقدم على قراءة القرآن.

(٣) مراعاة جنس العبادات :

جنس الصلاة أفضل من جنس قراءة القرآن، وجنس قراءة القرآن أفضل من جنس الذكر، وجنس الذكر أفضل من جنس الدعاء، وجنس الجهاد أفضل من جنس أعمال الحج، بل بين أفراد الجنس الواحد:

فمثلاً «أفضل الصوم صوم داود كان يصوم يومًا ويفطر يومًا» [٣]، و «أفضل الصدقة الصدقة على ذى الرحم الكاشح» [٤] ، و «أفضل الشهداء من سفك دمه وعقر جواده» [٥] و «أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله» [٦] ،

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه والترمذى عن أبى هريرة وصححه ابن خزيمة كما فى المنتقى رقم(٥١٣).
(٢) رواه النسائي والطبرانى وأبو داود عن زيد بن ثابت كما فى ص ج ص رقم (١١٢٨) .
(٣) رواه الترمذى والنسائي عن عبد الله بن عمر كما فى ص ج ص رقم (١١٣١).
(٤) رواه أحمد والطبرانى عن أبى أيوب كما فى ص ج ص رقم (١١٢١)، وذى الرحم الكاشح: المضمر العداوة فى باطنه .
(٥) رواه الطبراني عن أبى أمامة كما فى ص ج ص رقم (١١١٩) .
(٦) رواه الترمذى والنسائي وابن ماجه عن جابر، وحسنه الألبانى فى ص ج ص رقم (١١١٥) .

و«أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» (١).

(٤) مراعاة الأحوال :

قال الرسول ﷺ: «إذا ضحك الله من العبد فلا حساب عليه» (٢)، ثم أخبر عن صفات من يضحك الله إليهم فقال: «ثلاثة يحبهم الله ويضحك الله إليهم ويستبشر بهم: . . . ، والذى له امرأة حسنة وفراش لين حسن فيقوم من الليل فيقول: يذر شهوته ويذكرنى ولو شاء لرقد، والذى إذا كان فى سفر وكان معه ركب فسهروا ثم هجعوا فقام من السحر فى ضراء وسراء» (٣).

هذا فى حالة السلم أما فى حالة الحرب فالحال غير الحال لذا وجب مراعاة الأحوال، والفذ من عرف أفضل الأعمال فى مختلف الأحوال، **عوف بن الحارث** كان هذا الفذ حيث سأل النبى ﷺ فى غزوة بدر فقال: يا رسول الله ما يضحك الرب من عبده؟ (أى ما العمل الذى إذا عمله العبد فى هذه الحال كوفىء برفع الحساب عنه)، فقال النبى ﷺ: «يغمس يده فى العدو حاسرًا»، فنزع درعًا كانت عليه فقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل.

ومراعاة الأحوال تشتمل على مراعاة مواهب المتسابقين وما حباهم به الله من نعم، (فالغنى الذى بلغ له مال كثير ونفسه لا تسمح ببذل شىء منه: فصدقته وإيثاره أفضل له من قيام الليل وصيام النهار نافلة، والشجاع الشديد الذى يهاب العدو سطوته: وقوفه فى الصف ساعة وجهاده أعداء الله أفضل من الحج والصوم والصدقة والتطوع، والعالم الذى قد عرف السنة والحلال والحرام وطرق الخير والشر: مخالطته للناس وتعليمهم ونصحهم فى دينهم أفضل من اعتزاله وتفريغ وقته للصلاة وقراءة القرآن والتسبيح، وولى الأمر الذى قد نصبه الله للحكم بين

---

(١) رواه ابن ماجه وأحمد والطبراني عن أبى أمامة كما فى ص ج ص رقم (١١١١) .

(٢) رواه أحمد وأبو يعلى ورجاله ثقات .

(٣) رواه الطبرانى فى الكبير بإسناد حسن كما فى صحيح الترغيب والترهيب رقم (٦٢٥) .

عباده: جلوسه ساعة للنظر فى المظالم وإنصاف المظلوم من الظالم وإقامة الحدود ونصر المحق وقمع المبطل أفضل من عبادة سنين من غيره) [(١)].

ونزيد فنقول: أفضل الأعمال لمن غلب عليه داء الأمن من مكر الله تعالى والاغترار به: الخوف، وأفضل الأعمال لمن غلب عليه اليأس والقنوط من رحمة الله: الرجاء، وأفضل الأعمال للجنب: الاغتسال، وأفضل الأعمال لمن خشى العنت: النكاح، وأفضل الأعمال عند حضور الضيف: القيام بحقه والاشتغال به عن الورد المستحب، وأفضل الأعمال عند استغاثة اللهفان: الانشغال بمساعدته وإغاثة لهفته وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك، وأفضل الأعمال عند مرض المسلم: عيادته، وأفضل الأعمال عند موته: شهود جنازته وأفضل الأعمال لمن ... إلخ.

ينبغى الليلة أن لا تنام

قال رجل لابن الجوزى: ما قمت البارحة من شوقى إلى مجلسك، قال: «لأنك تريد الفرجة، وإنما ينبغى الليلة أن لا تنام»، صدق والله فإن نام الرجل وغرق فى غفلته بعد ما سمع كانت كلمات ابن الجوزى حجّة عليه يوم القيامة، وهكذا كلماتنا من نفس النوع.

فاقرأ..
وتدبّر..
واعمل ..

تم بحمد الله

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص (١٠٥).

كشاف السباق

أولاً : القرآن الكريم

* الجامع لأحكام القرآن — القرطبى
* فى ظلال القرآن — سيد قطب

ثانياً : الحديث الشريف

* السلسلة الصحيحة — الألبانى
* صحيح الجامع الصغير — الألبانى
* صحيح الترغيب والترهيب — الألبانى
* ضعيف الجامع — الألبانى
* مشكاة المصابيح — الألبانى
* المنتقى — القرضاوى
* فيض القدير — المناوى
* فتح البارى — ابن حجر العسقلانى
* الموطأ — الإمام مالك
* اللؤلؤ والمرجان — محمد عبد الباقى
* المسند — أحمد بن حنبل

ثالثاً : الرقائق والأخلاق

* عدة الصابرين — ابن قيم الجوزية
* الفوائد — ابن قيم الجوزية
* مفتاح دار السعادة — ابن قيم الجوزية
* الوابل الصيب — ابن قيم الجوزية
* طريق الهجرتين — ابن قيم الجوزية
* الداء والدواء — ابن قيم الجوزية

* إغاثة اللهفان	ابن قيم الجوزية
* إحياء علوم الدين	أبو حامد الغزالى
* التذكرة	القرطبى
* رسالة المسترشدين	الحارث المحاسبى
* لوحة الزاهدين	عبد الملك الكليب
* وحى القلم	مصطفى الرافعى
* صيد الخاطر	ابن الجوزى
* رسالة إلى ولدى	ابن الجوزى
* قيمة الزمن عند المسلمين	عبد الفتاح أبو غدة
* لطائف المعارف	ابن رجب الحنبلى
* قوت القلوب	أبو طالب المكى
* الزهد	عبد الله بن المبارك
* الياقوتة	ابن الجوزى
* أيها الولد	أبو حامد الغزالى
* إثبات عذاب القبر	أو بكر البيهقى
* الفتح الربانى	عبد القادر الجيلانى
* الرعاية	الحارث المحاسبى
* المدهش	ابن الجوزى
* بستان الواعظين	ابن الجوزى
* منهاج العابدين	أبو حامد الغزالى
* المواعظ والمجالس	ابن الجوزى
* اقتضاء القول العمل	الخطيب البغدادى
* ذم الهوى	ابن الجوزى
* الزهد	أحمد بن حنبل

* تنبيه المغترين	الشعرانى
* مختصر منهاج القاصدين	ابن قدامة المقدسى
* واحات الإيمان	عبد الحميد البلالى
* علو الهمة	محمد إسماعيل المقدم
* فقه السالكين	جمال ماضى
* أدب الدنيا والدين	أبو الحسن الماوردى
* الرقائق	محمد أحمد الراشد
* بهجة المجالس	القرطبى
* مائة قصة وقصة	محمد أمين الجندى
* التبصرة	ابن الجوزى

رابعاً : اللغة والأدب

* العقد الفريد	ابن عبد ربه
* لسان العرب	ابن منظور
* البيان والتبيين	الجاحظ

خامساً : الدعوة

* صفحات من صبر العلماء	عبد الفتاح أبو غدة
* نحو المعالى	محمد أحمد الراشد
* منهج التربية النبوية للطفل	محمد سويد
* قواعد الدعوة إلى الله	همام سعيد
* العوائق	محمد أحمد الراشد
* العلماء العزاب	عبد الفتاح أبو غدة
* آداب المتعلم والعالم	على القره داغى
* الاعتصام	أبو إسحاق الشاطبى

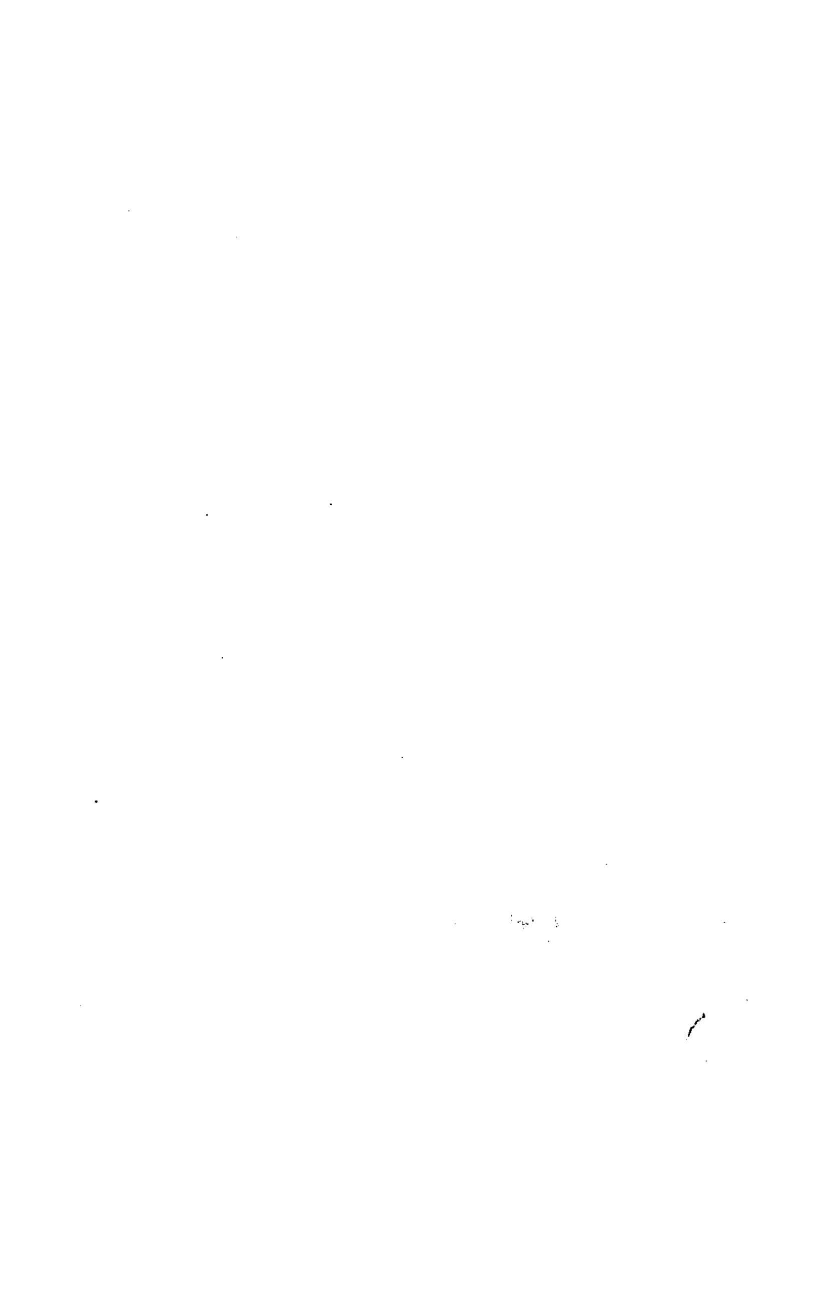
سادساً : التراجم

* سير أعلام النبلاء	شمس الدين الذهبى
* تاريخ بغداد	الخطيب البغدادى
* حلية الأولياء	أبو نعيم الأصفهانى
* صفة الصفوة	ابن الجوزى
* صفحات مشرقة	نذير محمد مكتبى
* مع العارفين	د. سعيد رمضان

سابعاً : السير والمغازى

* حياة الصحابة	الكاندهلوى
* سيرة عمر بن عبد العزيز	ابن عبد الحكم
* الرحيق المختوم	المباركفورى
* إمتاع الأسماع	المقريزى
* سيرة عمر بن عبد العزيز	ابن الجوزى
* بشر بن الحارث	د. عبد الحليم محمود
* الحسن البصرى	ابن الجوزى
* رحلة فى تكوين حاكم مسلم	د. عماد الدين خليل

الفهـرس



رقم الإيداع : ١٠١٦٣ / ٩٨

الترقيم الدولى : 6 - 219 - 265 - 977

مطابع الصقر

ت: ٠١٥/٤١٢٥٥٥ - ٠١٥/٤١٢٧٧٧

• هذا الكتاب •

إلى من ضل الطريق ..

وتاه فى الصحراء ..

حتى أعياه التعب .. وأنهكه العطش ..

وبينما هو كذلك .. إذ لاحت له فى الأفق رايات ..

أمَّل فيها أسباب النجاة ..

وإذا بالمنادى ينادى : اركب معنا

ويتودد إليه مطمئناً : لا أسألكم عليه أجراً

ويلح عليه فى شفقة :

إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن

ويبشره مردداً نداء الله :

إن رغبت فينا أتيناك .. وإن ناديتنا سمعناك ..

وإن عزمت على قربنا أدنيناك ..

وإن ذرفت الدمع من أجلنا فيابشراك ..

لبِّ نداءنا .. والحق بركبنا .. واسلك طريقنا ..

فقد سبقك فى الميدان صالح المؤمنين ..

ولعلهم حطُّوا رحالهم فى الجنة منذ سنين ..

فتشبَّه بهم .. وقلِّد صنيعهم ..

اغرس نخلة العزائم .. واروها بدموع نادم ..

تنعم بالثمار وبالغنائم ...

هيا ... أسرع ... لا تتوان ..

تقدم نحو خط البداية .. وانطلق معنا فى هذه الرحلة

ياسر حسن



دار البشير للثقافة والعلوم

الإدارة : طنطا 23 ش الجيش عمارة الشرق للتأمين
المكتبة : طنطا 32 ش الحلو تقاطع حسن رضوان
ت : 2210907 ، 040/2228277 تليفاكس : 3305538 ، 040/3321744

